كامل كيلاني

أشهر القصص

روبنسن كروزو



دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلانى

أشهر القصص

روبنسن كروزو

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة بقلم چان چاك رُسُّو ١

« ما دُمْنا لا نَسْتَغنِي عَنِ الْـكُتبِ ، ولا مَعْدَى لَنـا عَنِ الْمُطالَعَةِ ؛ فَثَمَّةَ كِتابٌ هُوَ عِنْدِي أَثْمَنُ ذُخْرٍ فِي التَّرْبيَةِ الاسْتِقْلالِيَّةِ الطبيعِيَّةِ . وسَيَكونُ أَوَّلَ كِتابٍ يَقْرَؤُهُ طِفْلِي « إِميل » . وسَيُصْبِحُ — وَحْدَهُ — كلَّ مَكْتَبَتِهِ . وسَيَرَى فِيهِ — عَلَى الدَّوامِ — مِنَ الْمَزايا الْباهِرَةِ ما يَدْفَعُهُ لإِخْلالِهِ أَسْمَى مَكانٍ بِيْنَهَا .

وسَيَظَلُّ هٰذا الْـكِتابُ عُمْدَةً فِي هٰذا الْبابِ ، وَيَظَلُّ كُـلُّ ما عَداهُ — مِنْ كُتُبِ الْعُلومِ الطَّبِيعِيَّةِ — حَواشِيَ وتَعْلِيقاتٍ عَلَيْهِ . فَهُوَ أَصْدَقُ مِقْياسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نجاحِنا فِي الْحَياةِ ، كَما نَقِيسُ عَلَيْهِ أَحْكامَنا الَّتِي نُصْدِرُها . وسَيَظَلُّ — كَذٰلِكَ — مُتَجَدِّدَ الرَّوْعَةِ والْأَثَرِ فِي كُـلِّ وَقْتٍ نَقْرَؤُهُ ، ما دام لَنا ذَوْقٌ لَمْ يَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ الْفَسادُ .



« جان جاك رسو »

تُرَى ما هُوَ هٰذا الْـكِتابُ إِذَنْ ؟

لَعَلَّهُ كِتابُ « أَرِسْطُو » أَوْ « پِـلِين » أَوْ « بُوفُّون » !

كَـلَّا ، لَيْسَ كِتابَ أَحَدٍ مِنْ هٰؤُلاءِ ، بَلْ هُوَ كِتابُ « رُوبنْسَنْ كُرُوزُو » .

چان چاك رُسُّو

---

(١) نثبت — في هذه الطبعة — مقدمة الكتاب وإلمامته كما نشرنا في الطبعات السابقة .

المسامرة

تعد قصة «روبنسن كروزو» من أشهر القصص العالمية التي كتب لها الخلود . وقلما تجد فتى – أو فتاة – ممن يتكلم الإنجليزية في أي بلد من بلاد العالم ، لم يقرأها في شغف وسرور لا حد لها ، وهو مبتهج بتلك القصة الفاتنة ، التي تشرح له كيف غرقت السفينة ، ومات من فيها ، ونجا واحد بمفرده من ملاحيها ، وعاش في جزيرة مقفرة لا أنيس بها . وكثيراً ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفاصيلها .



« دانيل ديفو »

وقد اتخذها رجال التربية أساساً لتثقيف الأطفال ، لأنها تعودهم الجد والدأب ، وتنشئهم على الحياة الاستقلالية أحسن تنشئة . وقد جعلوها أساساً لنظام الكشافة ، كما اتخذوها مرشداً لهم ومعيناً في اقتباس نظرية ربط بعض المواد الدراسية ببعض .

وقد ولد مؤلف هذه القصة « دانيل ديفو » بمدينة « لندن » عام ١٦٦١ م ، ومات في ٢٦ من إبريل سنة ١٧٣١م . وكان مشهوراً بالصدق والأمانة .

وكان اسم أبيه « جيمس فو » .

وقد ظل اسم المؤلف – منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنيه – « دانيل فو » ، ثم تغير بعد ذلك ؛ فأطلق عليه الناس اسم «دانيل ديفو». وكان لهذا التغير قصة طريفة ؛ هي أنه كان متعوداً أن يمضي بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردفه بالاسم الثاني منه كاملا هكذا : «د . فو» ؛ فتعود الناس أن ينطقوا باسمه هكذا : «ديفو» .

ثم غلب ذلك الاسم عليه ، لذيوعه وخفته على السمع وجمال موسيقاه ؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين « دانيل ديفو » .

وليس لدينا أنباء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة ، كما أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته الأولى . وغاية علمنا أن أباه كان قصاباً يعيش في « لندن » ، وأنه قد عني بتعليم ولده وتثقيفه العناية كلها ، ولم يأل جهداً في تمهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمي عصره ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة

من عمره ، أرسل إلى إحدى جامعات « لندن » ليتم ثقافته . وهكذا تفقه المؤلف فى الدين ، وبرع فى علوم الرياضة والجغرافية والتاريخ وما إلى ذلك ، كما أتقن خمس لغات . وقد وفق إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة : من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية ، فكانت سبباً فى إذاعة مواهبه ونبوغه بين معاصريه .

* * *

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات . وقد اشترك فى بعضها ، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل . فآثر الهرب إلى « إسبانيا » ، حيث استخفى عامين ، ثم عاد إلى وطنه . وساعده الحظ ، فتزوج فى « لندن » . واشتغل بالتجارة ، فلم يكتب له النجاح فيها ؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث . ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أرهقه الدين الذى أربى على سبعة عشر ألف جنيه . ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته — فيما بعد — على أداء هذا الدين الجسيم .

ثم رحل إلى « برستول » ، حيث أنشأ صحيفة باسمه ، وكتب فيها كثيراً من اقتراحاته الاقتصادية المثمرة ؛ فأخذت بها بلاده ، وأقرت آراءه فيها . وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق ، والمصارف الاقتصادية للفقراء ، وما إلى ذلك من تنظيم الخطط الناجحة لتعليم جمهرة الشعب .

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر فى نفس « بنيامين فرانكلين » ، الذى قرر — صراحة — أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذى سبقه إليه « ديفو » منذ عدة سنوات ، وقد حمد الحظ السعيد الذى قاده إلى هذا البحث فى مكتبة أبيه .

وقد اتصل بالملك « وليم الثالث » ، ودافع عن سياسته ، فذاع صيته .

ولما مات « وليم الثالث » آلمه موته ، وعده خسارة فادحة . وانتهز خصومه الفرصة ؛ فتألبوا عليه ونكلوا به . ثم عطفت عليه الملكة « حنة » ، بعد أن توسط له أحد الوزراء ؛ فظلت تشمله برعايتها حتى ماتت .

كيف اشتهر ديفو ؟

أما شهرة « ديفو » العظيمة ، فكان بدؤها قصيدة نظمها فى الدفاع عن « وليم أورنج » : ملك إنجلترا حينئذ ، رداً على قصيدة نظمها أحد الشعراء فى التهكم به ، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة ، وأحرز منصباً جليلا فى عام ١٦٩٤م .

وأبى إلا أن يزحم وقته بالعمل ، فأنشأ مصنع طوب كبيراً ، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله . ثم مات « وليم أورنج » فى عام ١٧٠٢م ، ففقد « ديفو » بموته أكبر نصير ومشجع له .

* * *

وفى عهد الملكة « حنة » لقى « ديفو » كثيراً

من العنت والإرهاق ؛ فتأول خصومه فى بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهوى . وانتهت محاكمته بسجنه ، وتغريمه غرامة فادحة فى أواخر يونية سنة ١٧٠٣م .

وقد شهر به خصومه ، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبل قصده وشرف غايته . وقد كتب فى سجنه عدة مقالات نفيسة . ولما خرج من السجن أنشأ صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح ، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م. وكانت أول أمرها تظهر مرة فى الأسبوع ، فرتين ، ثم ظلت تصدر تباعاً ثلاث مرات فى كل أسبوع .

* * *

وقد لقى « ديفو » كثيراً من الاضطهاد والعنت ، وتعرضت حياته للقتل ، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة . وفى عام ١٧١٤م فصل من عمله، وعاد إلى التعرض للإعنات مرة أخرى . وتألب عليه أعداؤه ، ودبروا له كثيراً من الدسائس والمؤامرات ، ورموه بالأنانية . فأنشأ صحيفة جديدة أسماها : « الدعوة إلى الشرف والعدل » . ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعاً مجيداً . وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية . ثم ساءت صحته وألح عليه المرض ، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه ، فاسترد صحته بعد قليل .

وقد ألف كثيراً من البحوث والمقالات والرسائل فى الدين والحكومة والوطن . ثم ألف فى أخريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التى أقبل عليها الجمهور أيما إقبال . وقد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص ، وشدة تأثره بها ، وتهافته عليها ؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل ، دقيقة فى تصوير الحياة . فنال بقصصه نجاحاً عظيما ؛ لأن قصته كانت تحلق دائماً فى جو سحرى خلاب يزينه الصدق والدقة والإخلاص .

* * *

وفى عام ١٧١٥م ألف كتاب « معلم الأسرة » فنال قسطاً كبيراً من النجاح والذيوع ، وأقبل عليه الجمهور . ثم ألف كتابه الخالد « روبنسن كروزو » وهو أشهر قصصه . وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة : « حى بن يقظان » . ونشر القسم الأول منه فى أبريل سنة ١٧١٩م، وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره .

وقد لقى هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به « ديفو » ، وأصبح حبيباً إلى كل نفس . ومن العجيب أنه لقى كثيراً من المتاعب والصعوبات فى البحث عن ناشر ينشره له فى أول الأمر . وليس فى قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتابه ، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم ، فقد نفدت منه أربع طبعات متوالية فى أربعة أشهر متعاقبة . وبعد زمن قليل ظهر القسم الثانى من القصة ، فلقى من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لقى سابقه . وهكذا ظفر « ديفو » بالشهرة عن طريق هذا الكتاب ، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة ، على أن له عدة

مؤلفات أخرى .

وقد سار على نهجه بعض الكتاب ، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو « الأسرة السويسرية » الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة فى جامعة « برن » . وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق ؛ فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة ، يظللها الوئام والحب ؛ فتتغلب على العقبات والمصاعب .

* * *

على أن « ديفو » له عدة مؤلفات أخرى ، نذكر منها كتابه عن « الطاعون الهائل » الذى انتشر عام ١٦٦٥م . ولكن لم يرزق أى كتاب من كتبه حظاً من الخلود كما رزقت قصة « روبنسن كروزو » . ولقد كانت كتبه شائقة جذابة ، ولكن ليس لها سحر هذه القصة ، وروعة هذا الملاح الذى كتب له أن تغرق سفينته وأن يعيش فى جزيرة مقفرة .

* * *

وقد ساعده ما ربحه من المال — لقاء كتابته — على أن يقضى بقية حياته مستريح البال ، بعيداً عن الفاقة . فابتنى قصراً فاخراً ، واشترى عربة وجياداً ، وعاش عيشة راضية . ولكن صفوه لم يدم ؛ فقد نهكه مرض النقرس ، وضايقه عقوق ولده ؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم . ودفن فى «لندن» فى الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م

كامل كيلانى

تمهيد

مقدِماتُ السَّفرِ

١ — أُسْرَةُ « رُوبِنْسَنْ »

كانَتْ ولادَتِي فى عامِ ١٦٣٢ م بِمَدِينَةِ « يُرْك » الَّتى اتَّخَذَها أَبى مَوْطِناً ثانِياً لَهُ ، بَعْدَ أَنْ كَسَبَ منَ التِّجارةِ مكاسِبَ طائِلَةً ، وجَنَى[1] ثَرْوَةً عَظيمةً ، كَفَلَتْ لهُ عِيشَةً راضِيَةً .

وكانتْ أُسْرَتُنا مُؤَلَّفَةً مِنْ : والِدِي الشَّيْخِ ، وأُمِّىَ الْعَجوزِ ، وثَلاثةِ أَبْناء كُنْتُ أَصْغَرَهُمْ سِنًّا .

وقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الْأَكْبرُ فى مَعْرَكةٍ حَرْبِيَّةٍ ، وسافَرَ الشَّقِيقُ الأَوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لا نَدْرِي ؛ فانْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ ، ولَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ — بَعْدَ ذٰلِكَ — شَيْئًا .

---

(١) جمع .

وَعُنِيَ أبِي عِنايةً كبيرَةً بتَعْلِيمي ، وَنَشَّأَنِي أحْسَنَ تَنشِئَةٍ ، وَزَوَّدَنِي بكَثِيرٍ منْ نَصائِحِهِ الثَّمِينَةِ ، واخْتارَ لِي أنْ أتفَقَّهَ فِي القانُونِ[1] ولٰكِنَّنِي كُنتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ ، وكانَت نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عنْ ذٰلكَ كُلِّهِ .

٢ — حُبُّ السِّياحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ واحِدَةٌ ، طالَما تَمنَّيْتُها ، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ ، طالَما وَدِدْتُ تَحْقِيقَها . فقَدْ شُغِفْتُ[2] بالسِّياحَةِ وَرُكُوبِ الْبِحارِ ، وَتَملَّكَ عَلَيَّ حُبُّ السَّفَرِ كُلَّ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أُصْغِي إِلَى لَوْمٍ أوْ نَصِيحَةٍ . وَكأَنَّ إرادَةً قاهِرَةً قَدْ هَيْمَنَتْ[3] عَلَى نَفْسِي ، وَغَلَبَتْنِي عَلَى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أُصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أبِي ، وَرَجاءِ أُمِّي ، وإِلْحاحِ أَقارِبِي ؛ حَتَّى يَئِسُوا مِنْ هِدايَتِي ، لِما رَأَوْهُ مِنْ عِنادِي وَإِصْرارِي .

٣ — نَصِيحَةُ والِدِهِ

وَكانَ أبِي شَيْخًا مُجَرِّبًا حَكِيمًا ، وَكُنْتُ أُحِبُّهُ وَأُجِلُّهُ .

---

(١) أتعلمه .　(٢) تعلق قلبي .　(٣) تسلطت .

وَذا صَباحٍ ، دَعانى إلى غُرْفَتِهِ — وَكانَ الشَّلَلُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْىِ — وَقالَ لِى وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ :



« أَىُّ رَغْبَةٍ مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ إلَى مُغادَرَتِنا ، وَتُبَغِّضُ إلَيْكَ الْبَقاء مَعَنا ؟ وَماذا يُضْجِرُكَ[1] مِنْ حَياةٍ هَنِيئَةٍ وَعِيشَةٍ راضِيَةٍ ، فِى بَيْتٍ نَشَأْتَ فيهِ ، ووَطَنٍ أَلِفْتَهُ وأَحْبَبْتَهُ ؟ وما بالُكَ تُؤْثِرُ[2] الشَّقاءَ عَلَى الرَّاحَةِ ، وَتُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِأَخْطارِ الْبَحْرِ وَمَتاعِبِ السَّفَرِ ؟ لَقَدْ يَسَّرَ اللهُ لكَ سَبِيلَ السَّعادَةِ ، وَهَيَّأَ لكَ عِيشَةً راضِيَةً . فَما أَجْدَرَكَ[3] أَنْ تَرْضَى بِما قَسَمَ اللهُ ، وتَحْمَدَهُ عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الَّتى اخْتَصَّكَ بِها ! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ ، وأَبَيْتَ إلَّا تَحْقِيقَ رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِى السَّفَرِ ، أَغْضَبْتَنِى ، وأَغْضَبْتَ أُمَّكَ ، وَأَغْضَبْتَ اللهَ — سُبْحانَه — الَّذِى أَمَرَكَ بِطاعَةِ أَبَوَيْكَ . »

---

(١) يضايقك . (٢) تختار (٣) أحسن لك .

٤ — دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

وَظَلَّ أَبِي يَعْنُفُ[١] فِي كَلامِهِ تارَةً ، وَيَلِينُ تارَةً أُخْرَى ، وَيَضْرِبُ لِيَ الأَمْثالَ . وَلَمْ يَدَعْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النُّصْحِ إِلَّا سَلَكَهَا . ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قائِلًا :

« وَاذْكُرْ — يا وَلَدِي — أَنَّنِي فَقَدْتُ شَقِيقَكَ الأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ فِي الْحَرْبِ ، وفَقَدْتُ شَقِيقَكَ الأَوْسَطَ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى السَّفَرِ، كَما تُصِرُّ عَلَيْهِ الآنَ ؛ وَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ ، فَما نَعْلَمُ : أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ وأَصْبَحْتَ لنا — بَعْدَ أَخَوَيْكَ — كُلَّ رَجائِنا وَعَزائِنا . فَإِذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ ، وَأَبَيْتَ إِلَّا السَّفَرَ ؛ فَلَنْ يُبارِكَ اللهُ لكَ ؛ وَلَنْ تَلْقَى — فِي سَفَرِكَ — إِلَّا الْعَناءَ والشَّقاءَ . »

* * *

وَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ الْكَلِمَةُ تَكَهُّنًا[٢] صادِقًا ، وَدَعْوَةً مُسْتَجابَةً ؛ فَقَدْ شَقِيتُ — بِعِنادِي وإِصْرارِي[٣] — شَقاءً لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي .

(١) يشتد .   (٢) إخبارًا بالغيب .   (٣) عزمي الثابت .

٥ — عُدُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وكانَ صَوْتُ أبِي مُتَهَدِّجاً[١] ، ودُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ[٢] مِنْ عَيْنَيْهِ . وقَدِ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِيَ الأكْبَرِ ، وانقِطاعَ أخْبارِ شَقِيقِيَ الأوْسَطِ .

وكانَ يَتَمَثَّلُ لِي حَنانُه وعَطْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِها . ولَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أنْ أُخالِفَ لَهُ نُصْحاً بَعْدَ ذٰلِكَ ؛ فوَعَدْتُهُ بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ . وعَقَدْتُ عَزْمِي[٣] عَلَى الْبَقاءِ فِي وَطَنِي ، نُزُولاً عَلَى حُكْمِهِ ، وطاعَةً لِأمْرِهِ .

٦ — نَقْضُ الْعَهْدِ

وبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ عاوَدَتْنِي رَغْبَةٌ قاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ ، وحَنِينٌ شَدِيدٌ إلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ فَنَسِيتُ ما عاهَدْتُ أبِي عَلَيْهِ ، وتَحَوَّلْتُ[٤] لِذٰلِكَ حِيلَةً لَمْ أُوَفَّقْ فِيها . فَقَدْ رَأَيْتُ دَلائِلَ الِابْتِهاجِ بادِيَةً عَلَى وَجْهِ أُمِّي — ذاتَ يَوْمٍ — فوَجَدْتُ فِي ذٰلِكَ فُرْصَةً سانِحَةً لِلْإِفْضاءِ إلَيْها بِرَغْبَتِي فِي السَّفَرِ ، واسْتِئْذانِها فيهِ . وتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبابِ الَّتِي تَحْفِزُنِي[٥]

---

(١) مرتعشاً . (٢) تسقط . (٣) بثبيت إرادتى .

(٤) اتخذت . (٥) تدفعنى .

إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهَا. وَأَظْهَرْتُ لَهَا أَنَّ هٰذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلُحُ لِأَدَاءِ أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ، قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِهَا. وَخَتَمْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا:

« وَاعْلَمِي أَنَّنِي إِذَا عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِهٰذَا الْإِذْنِ مِنْكِ وَمِنْ أَبِي، فَإِنَّنِي مُعْتَزِمٌ السَّفَرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ. وَلَا تَنْسَيْ أَنَّنِي قَدْ بَلَغْتُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِي، وَأَصْبَحْتُ عَاقِلًا رَشِيدًا، أَمْلِكُ أَمْرِي.

عَلَى أَنِّي أَرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي السَّفَرِ. »

٧ — غَضَبُ أَبَوَيْهِ

وَمَا سَمِعَتْ أُمِّي مِنِّي هٰذَا الْكَلَامَ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهَا عَلَيَّ، وَقَالَتْ لِي:

« مِنَ الْعَبَثِ أَنْ تَتَمَادَى[١] فِي إِقْنَاعِنَا بِهٰذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ الَّتِي لَا تَجُرُّ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبَالَ[٢]. وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعَرِّضَ نَفْسَكَ لِلْهَلَاكِ. »

* * *

(١) تستمر. (٢) سوء العاقبة.

وما أخبرتْ أبي بما اعتزمتُهُ ، حتّى اشتدَّ ألمُهُ وغيظُهُ ، وقالَ لها :

« يبدُو لِي أنّ الشّقاءَ مُقدَّرٌ لهٰذا الْوَلَدِ التّاعِسِ . وسَيَلْقَى فى سفرِهِ مِنَ الْمصائبِ والْأهوالِ ، ما لا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بالٍ . وسيَعرِفُ أنّ ما يَحُلُّ بِهِ مِنَ النّكباتِ هُوَ عِقابٌ عادِلٌ عَلَى مُخالَفَتِهِ نَصيحَةَ أبوَيْه . ولَنْ يَسْمَحَ لِي ضَمِيرِي أنْ أُشْرِكَهُ فى تَسْهيلِ أسْبابِ شقائِهِ . »

• • •

وَما انقضَى عَلَيَّ عامٌ — بعْدَ ذٰلكَ — حتّى فرَرْتُ مِنَ الْبيْتِ ، وقَدْ أزْمَعْتُ[1] السّفَرَ ، بَعْدَ أنْ عجَزْتُ عَنِ الظّفَرِ بِرضاء أبوَيَّ .

وكُنْتُ أعْجَبُ لِتَشَبُّثِهِما[2] بِبقائِي مَعهُما . ولَمْ أعْلَمْ — حِينَئِذٍ — ما كانَ يَخْبَؤُهُ لِيَ الْقَدَرُ مِنْ مَصائِبَ ووَيْلاتٍ .

---

(١) قررت . (٢) تعلقهما .

الفصل الأول

أهوالُ البحرِ

١ — أوّلُ سِنْتَمْبِرَ

ساقَتْنِي الْمُصادَفاتُ الْعَجِيبَةُ — ذاتَ يَوْمٍ — إلى « هَلْ » ، ولَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ — حِينَئِذٍ — فى السَّفَرِ إِلَيْها ، ولا خَطَرَ لِي ذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ على بالٍ .

ولَقِيتُ — فى طَرِيقِي — أَحدَ أَصْدِقائِي ، فَحَيَّانِي وحَيَّيْتُهُ . ثُمَّ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ عَلَى أُهْبَةِ السَّفَرِ[1] إلى « لَنْدَن » . ودَعانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ فى سَفِينَةِ أَبِيهِ ؛ فَرَأَيْتُها فُرْصَةً نادِرَةً لتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِي ، دُونَ أَنْ يُكَلِّفَنِي ذٰلِكَ أَجْرًا . وغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ ، فَنَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ . ولَمْ أَحْفِلْ[2] بِإِذْنِ والِدَيَّ لِي فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ ، ولَمْ أُقَدِّرْ عَواقِبَ الْأُمُورِ .

وَهٰكَذا رَكِبْتُ الْبَحْرَ . . . وَما أَنْسَ لا أَنْسَ[3] ذٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي

---

(١) مستعد للرحيل . (٢) لم أهتم . (٣) إن نسيت كل شيء فلن أنسى .

أَقْدَمْتُ فيهِ عَلَى هٰذهِ ٱلْمُجازَفَةِ . فقَدْ كانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فى تاريخ حياتِى ؛ إذْ كانَ فاتِحَةَ عَهْدِ ٱلشَّقاء .

ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سبْتَمبرَ عامَ ١٦٥١ م .

٢ — هُبُوبُ ٱلعاصِفَةِ

وما كادَتِ ٱلسَّفِينَةُ تَمْخُرُ(١) فى عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، حتَّى رَأَيْتُ ٱلْأَمْواجَ تَضْطَخِبُ(٢) وَتَعْنُفُ(٣) . وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ ٱلْبَحْرَ قَبْلَ هٰذا ٱلْيَوْمِ ؛ فَتَمَلَّكَنِي ٱلْخَوْفُ والْفَزَعُ ، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِى قَدْ حانَتْ . وَتَمَثَّلَتْ لِى نَصائِحُ والِدَىَّ وأهْلى ، وَذَكَرْتُ كَلِماتِ أُمِّىَ الَّتِى كانَتْ تَقُولُها لِى وَالدُّمُوعُ مُتَحَدِّرَةٌ مِنْ مَآقِيها(٤) . وَأَيْقَنْتُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْعاصِفَةَ لَيْسَتْ إلَّا عِقابًا عادِلًا وجَزاءً وِفاقًا .

واشْتَدَّ هِياجُ ٱلْبَحْرِ واضْطِرابُه . وَرَأَيْتُ الْعاصِفَةَ ٱلْهَوْجاءَ ، وَهِىَ تُنْذِرُنا بِالْهَلاكِ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَقَدْ أَوْشَكَ ٱلْمَوْجُ أَنْ يَبْتَلِعَنا جَمِيعًا . وَخُيِّلَ إلَىَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْمِسَ قاعَ ٱلْبَحْرِ ، فَلَمْ أَرَ مَناصًا(٥) مِنَ ٱلْمَوْتِ . وَنَذَرْتُ لِلّٰهِ نَذْرًا أَلَّا أَرْكَبَ ٱلْبَحْرَ

(١) تشق الماء . (٢) تتقلب . (٣) تشتد . (٤) جوانب عينيها . (٥) مخرجاً

ما حَيِيتُ بَعْدَ هٰذهِ المَرَّةِ ، إذا نَجَوْتُ مِنَ ٱلْهَلاكِ ! وَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُنْقِذَني ، لِأَعُودَ إِلَى أَبَوَيَّ تائِبًا نادِمًا عَلَى عِصْيانِي وَمُخالَفَتِي ، وَأُعاهِدَهُما(١) عَلَى أَنْ أُطِيعَهُما فِي كُلِّ ما يَأْمُرانِ بِهِ .

• • •

وَفِى ٱلْيَوْمِ التَّالِي سَكَنَ ٱلْهَوَاءُ ، وهَدَأَ ٱلْبَحْرُ . وبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّنِي قَدْ تَعَوَّدْتُهُ وأَلِفْتُهُ بَعْضَ ٱلْأُلْفَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ — حِينَئِذٍ — قَدْ تَمَّ شِفائِي مِنَ الدُّوارِ(٢) .

ولَمَّا اقْتَرَبَ ٱللَّيْلُ وغَرَبَتِ الشَّمْسُ وانْقَشَعَتِ السُّحُبُ(٣) ، ظَهَرَتْ رَوْعَةُ ٱلْبَحْرِ(٤) ، وجَمالُ الطَّبِيعَةِ فى تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ . وَهَبَّ عَلَيْنا فى ٱلْيَوْمِ التَّالِي نَسِيمٌ خَفِيفٌ . وأَصْبَحَ ٱلْبَحْرُ كالْمِرْآةِ الصَّافِيَةِ ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعَةُ فى أَبْهَى حُلَلِها(٥) . ورَأَيْتُ مِنْ جَمالِ ٱلْبَحْرِ — فى ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ — ما أَنْسانِي هِياجَهُ واضْطِرابَهُ بِٱلْأَمْسِ . فَنَسِيتُ ذٰلِكَ النَّذْرَ الَّذِي نَذَرْتُهُ لِلّٰهِ ، وٱلْعَهْدَ الَّذي قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِي !

• • •

(١) أحلف لهما . (٢) وجع يصيب الرأس من ركوب البحر . (٣) زالت .
(٤) حسن منظره . (٥) أجمل أثوابها .

وَجاءَ إِلَىَّ صَدِيقِي يُرَبِّتُ كَتِفِي وَيَقولُ :

« كَيْفَ تَجِدُكَ ٱلْآنَ ؟ شَدَّ ما رَوَّعَكَ(١) ٱلْبَحْرُ ، يا صَدِيقِي . وَما كانَ أَجْدَرَكَ(٢) بِالشَّجاعَةِ ، فَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُكَ خَوْفًا وَرُعْبًا حِينَ هَبَّتْ علَيْنا نَسَمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ . »

* * *

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا : « كَيْفَ تُسَمِّيها نَسَمَةً ، وَهِيَ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ مُرَوِّعَةٌ ؟ »

فَقالَ لی : « وَكَيْفَ تُسَمِّيها عاصِفَةً ؟ يا لَكَ مِنْ ساذَجٍ ! إِنَّها نَسَمَةٌ خَفِيفَةٌ ، طالَما أَلِفْناها وهَزِئْنا بِها . فَلا تَجْزَعْ مِنْ أَمْثالِها ؛ فَأَنْتَ رَجُلٌ ، وما أَجْدَرَ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شُجاعًا ! »

٣ — فِی ٱلْيَوْمِ ٱلثَّامِنِ

وَقَدْ أَنْسانِی هُدُوءُ ٱلْبَحْرِ وَصَفاؤُهُ كُلَّ آلامِي وَأَحْزانِی . وَشَغَلَنِيَ التَّأَمُّلُ فی جَمالِ الطَّبِيعَةِ عَنْ كُلِّ شَیْءٍ . وَلَمْ يَنْقَضِ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيَّامٍ

(١) أزعجك . (٢) ما أحقك .

حَتَّى اطْمَأَنَّتْ نَفْسِى إِلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ ؛ وَلَمْ أَعُدْ أَذْكُرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي، وَنَسِيتُ كُلَّ ما زَوَّدُونِى بِهِ مِنْ نَصَائِحَ . وَفِى صَباحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَنُفَتِ الرِّيحُ ، وَاشْتَدَّتِ اشْتِدادًا لا مَثِيلَ لَهُ : وَبَدا الْقَلَقُ والِاضْطِرابُ عَلَى أَسارِيرِ الْمَلَّاحِينَ[1] ؛ فَأَنْزَلُوا أَشْرِعَةَ السَّفِينَةِ، وَتَأَهَّبُوا[2] لِمُلاقاةِ الْخَطَرِ وَجْهًا لِوَجْهٍ . وَلَمَّا جاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هِياجُ الْبَحْرِ ، وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي نُفُوسِنا جَمِيعًا . وَسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَقَدْ كانَ مِثالَ الشَّجاعَةِ وَالْحَزْمِ — وَهُوَ يُناجِي نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: « رَحْمَةً بِنا يا إِلٰهِى ! فَقَدْ هَلَكْنا جَمِيعًا، وَلَمْ يَبْقَ لَنا مَلْجَأٌ سِواكَ . »

* * *

وَامْتَلَأَتْ نَفْسِى رُعْبًا ؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْواجَ تَرْتَفِعُ كَالْجِبالِ ، وَتَنْقَضُّ[3] عَلَيْنا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْنا أَنَّها قَدِ ابْتَلَعَتْنا . وَرَأَيْنا السُّفُنَ الْقَرِيبَةَ تُعانِى مِثْلَ ما نُعانِيهِ ، وَقَدْ غَرِقَتْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَّا . وَما انْتَصَفَ اللَّيْلُ حَتَّى صاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفاقِهِ النَّجْدَةَ وَالْغَوْثَ ؛ فَقَدْ ثُقِبَتِ السَّفِينَةُ ! وَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ ، فَرَأَيْنا ثُغْرَةً[4] يَتَدَفَّقُ

(١) خطوط جبينهم (٢) استعدوا (٣) تسقط (٤) خرقاً .

مِنْها الْماءِ . وتَعاونَّا جَمِيعاً عَلَى إِخْراجِ الْماءِ مِنَ السَّفِينَةِ . وأَطلَقَتْ إِحْدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا مِدْفَعاً ، إِنْذارًا بِالْخَطَرِ ، وطَلَباً لِلنَّجْدَةِ . وقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

ولَمْ أُفِقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ . وأَطْلَقَ رُبَّانُنا مِدْفَعاً ، الْتِماساً لِلنَّجْدَةِ . فَدَنَتْ مِنَّا سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لإِنْقاذِنا ، وحَمَلَتْنا إِلَى باخِرَةٍ قَرِيبَةٍ . ولَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْها إِلَّا بَعْدَ عَناءٍ[1] شَدِيدٍ .

* * *

وبَعْدَ دَقائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنا سَفِينَتَنا وهِيَ تَغْرَقُ . ومَضَى عَلَيْنا زَمَنٌ طَوِيلٌ ونَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ[2] لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وأُخْرَى . ولَمْ نَبْلُغِ الشَّاطِئَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خارَتْ[3] قُوانا وَيَئِسْنا مِنَ النَّجاةِ .

٤ — بَعْدَ النَّجاةِ مِنَ الْغَرَقِ

ولَقَدْ كانَ جَدِيرًا بِي — بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِالسَّلامَةِ مِنَ الْغَرَقِ — أَنْ أَفِيَ بِنَذْرِي ، وَأَعُودَ إِلَى أَهْلِي تائِباً نادِمًا عَلَى ما فَرَطَ[4]

---

(١) تعب (٢) متعرضون . (٣) ضعفت . (٤) ما سبق وقوعه .

مِنِّي . ولٰكِنَّ غُرورَ الشَّبابِ[1] حالَ بَيْني وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الفِكْرَةِ النَّبِيلَةِ . فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شَماتَةُ النَّاسِ بِي ، وسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي ؛ لِما لَحِقَنِي مِنَ النَّكَباتِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إذا عُدْتُ إلىَ أَهْلِي ، أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ . وَعَزَّ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْتَرِفَ بِخَطَئِي .

وَقَدْ كَلَّفَنِي هٰذا الْغُرُورُ ثَمَنًا غالِيًا جِدًّا ؛ فَقَدْ دَفَعَنِي الْعِنادُ إِلَى اقْتِحامِ الْأَخْطارِ ورُكُوبِ الْبِحارِ ، ولَقِيتُ مِنَ الْمَصائِبِ ما لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بالٍ .

فَعَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ سافَرْتُ إِلَى « لَنْدَن » — عَلَى مُرافَقَةِ جَماعَةٍ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلى شَواطِئِ إِفْرِيقِيَّةَ . ولَمْ أَعْلَمْ ما يَخْبَؤُهُ لِيَ الْقَدَرُ مِنَ الْمَتاعِبِ والْآلامِ .

---

(١) خداعه وباطله .

الفصل الثانى

بَيْنَ الأسرِ والحرية

١ — رِحْلَةٌ مُوَفَّقَةٌ

كانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ تكُونَ حياتِيَ القابِلَةُ سِلْسِلَةً مِنَ الكوارِثِ[1] والنَّكباتِ ، فَلا أخلُصَ مِنْ مُصيبَةٍ حتّى تُسْلِمَنِي إلى أخْرى ، ولا أنْجُوَ مِنْ مَأْزِقٍ[2] حتّى أقَعَ فى مَأزِقٍ شَرٍّ منهُ . فَقَدْ أغضَبْتُ والِدَيَّ وأَهْلِي ، وأهْمَلْتُ نَصائِحَهُمْ ، وخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلا إذْنٍ مِنْهُمْ . وثَمَّةَ أيقَنْتُ أنَّ ماحَلَّ بِي مِنَ الكوارِثِ لَمْ يَكُنْ إلّا عِقابًا عادِلًا عَلَى تَمَرُّدِي وعِصْيانِي .

لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُواصَلَةِ السَّفَرِ ، بَعْدَ أنْ عَزَّ عَلَيَّ أنْ أعُودَ إلى بَيْتِيَ مُخْفِقًا[3] . وأَرَدْتُ أنْ أُصْلِحَ الخَطَأَ الأوَّلَ بِخَطِيئَةٍ أُخْرى ، أكْثَرَ شَناعَةً مِنْهُ . فَما صاحَبْتُ رُبّانَ إحْدَى السُّفُنِ — وكانَ أوَّلَ شَخْصٍ لَقِيتُهُ مِنَ المَلّاحِينَ — حَتّى اعْتَزَمْتُ مُرافَقَتَهُ فِي رِحْلَتِهِ .

---

(١) المصائب .   (٢) ضيق وشدة .   (٣) خائباً .

وكانَتْ سَفِينَتُهُ ذاهِبَةً إلَى شَواطِئِ « غانَةَ » وقَدْ أَخْبَرَنى بِما لَقِىَ مِنْ نَجاحٍ ، وَما أَفادَ مِنْ غِنًى وثَرْوَةٍ ، فى رِحْلَتِهِ ٱلْأُولَى إلى تِلْكَ ٱلْبِلادِ . وَما تَعَرَّفَ قِصَّتِى حَتَّى شَجَّعَنِى عَلَى مُصاحَبَتِهِ ، وَأَعْفانِى مِنْ نَفَقاتِ ٱلرِّحْلَةِ . وٱقْتَرَحَ عَلَىَّ أَنْ أَشْتَرِىَ — بِما مَعِىَ مِنَ النُّقُودِ — بَضائِعَ لِأَتَّجِرَ بِها فى تِلْكَ ٱلْبِلادِ ؛ فَفَعَلْتُ كُلَّ ما أَشارَ بِهِ عَلَىَّ .

ونَجَحَتْ هٰذه ٱلرِّحْلَةُ . وقَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ فى تَدْرِيبِى على ٱلْمِلاحَةِ والتِّجارَةِ . وعُدْتُ إلى « لَنْدَن » مُغْتَبِطًا راضِيًا بِما أَصَبْتُهُ مِنْ رِبْحٍ وتَوْفِيقٍ .

٢ — لُصُوصُ ٱلْبَحْرِ

وبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ تُوُفِّىَ ذٰلِكَ الرُّبَّانُ . فَحَزِنْتُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا ؛ ومَنَحْتُ أَرْمَلَتَهُ مِائَتَىْ جُنَيْهٍ . وَشَرَيْتُ بَضائِعَ بِمائَةِ ٱلْجُنَيْهِ ٱلْباقِيَةِ مَعِى ، وأَبْحَرْتُ إلى « غانَةَ » . ولٰكِنَّ رِحْلَتَنا — فى هٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ — لَمْ تَكُنْ مُوَفَّقَةً ؛ فَقَدِ ٱعْتَرَضَنا لُصُوصُ ٱلْبَحْرِ فى الطَّرِيقِ ، فَأَطْلَقْنا لِسَفِينَتِنا ٱلْعِنانَ ، وحاوَلْنا النَّجاةَ مِنْهُمْ . وكانَ فى سَفِينَتِنا ٱثْنا عَشَرَ مِدْفَعًا ،

وعِنْدَ أَعْدائِنا ثمانِيَة عَشَرَ مِدْفعًا . وكُنَّا أَقلَّ مِنْهُمْ عَـدَدًا ، ولٰـكِنَّنا اسْتَبْسَلْنا فى دِفاعِنا وقهَرْناهُمْ مَرَّتَيْنِ . ثُمَّ كَرُّوا علَيْنا — فى الْمَرَّةِ الثَّالِثةِ — فقَهَرُونا ، وحَطَّمُوا قِلاعَنا ، وقتَلوا ثلاثةً مِنْ رِجالِنا ، وجَرَحُوا ثمانِيَةً ؛ فاضْطُرِرْنا إلَى الْإِذْعانِ لَهُمْ ، ووَقَعْنا فى أَسْرِهِمْ .

٣ — الْعُبُودِيَّةُ

وقَدْ أَعْجِبَ الرُّبَّانُ بِنشاطِى ؛ فاتَّخذَنِى عَبْدًا لهُ . ولَبِثْتُ فى خِدْمَتِهِ عامَيْنِ كامِلَيْنِ ، وأَنا أُفكِّرُ فى وَسِيلَةٍ لِلْهَرَبِ فَلا أُوَفَّقُ . وكان كَثِيرًا ما يَصْحَبُنِى لِأَصْطادَ مَعَهُ ، وقَدْ وَثِقَ بِى فى كُلِّ أعْمالِهِ.



وفى أَحَدِ الْأَيَّامِ ، طَلَبَ مِنِّىَ الرُّبَّانُ أنْ أصْطادَ سَمَكًا لِيَتَمَشَّى بِهِ مَعَ ضُيُوفِهِ ؛ فرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِلْهَرَبِ ؛ فقَدْ تَرَكَ لِىَ الرُّبَّانُ سَفِينةَ الصَّيْدِ ، ولَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِى إلَّا فَتًى

رَقِيقٌ ، ورَجُلٌ مِنْ أقارِبِ الرُّبَّان . فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ :

« يَجِبُ أنْ تُعِدَّ لَنا زادًا[1] نَأْكُلُهُ حتَّى لا نَشْرَكَ سَيِّدَنا فى أَكْلِهِ . »

فَأَقَرَّنِى على هٰذا الرَّأْيِ ، وأحْضَرَ لَنا سَلَّةً منَ الْفَطائِرِ الْيابِسَةِ والْخُشْكَنانِ[2] ، وثَلاثَ جَرَّاتٍ مَمْلُوءَةً ماءً . وذَهَبْتُ إلَى مَخْزَنِ الرُّبَّانِ ؛ فَأَحْضَرْتُ مَعِي فَأْسًا وقَدُومًا وحِبالًا ، وطَلَبتُ مِنَ الرَّجُلِ أنْ يُحْضِرَ لَنا بُنْدُقِيَّاتٍ ورَصاصًا لِنَصْطادَ بِها ، فَأَحْضَرَ لِي ما طَلَبْتُ .

وهٰكَذا أعْدَدْتُ كلَّ مُعَدَّاتِ الْهَرَبِ .

٤ — الْفِرارُ

لَقَدْ أزْمَعْتُ الْفِرارَ[3] ، ولَمْ أكُنْ عَلَى ثِقَةٍ منَ النَّجاحِ ؛ وَلٰكِنَّنِي أيْقَنْتُ أنَّ الْعَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُها ، ما دامَ الْيَأْسُ لا يَعْرِفُ سَبِيلًا إلَيْها .

وَسِرْنا مَسافَةً طَوِيلَةً وَأنا أُوهِمُ الرَّجُلَ أنَّنِي جادٌّ فى تَحْقِيقِ فِكْرَةِ الرُّبَّانِ . ثُمَّ غافَلْتُهُ وَقَذَفْتُ بِهِ إلَى الْبَحْرِ — وكانَ ماهِرًا فى السِّباحَةِ —

(١) طعاماً . (٢) البسكويت . (٣) اعتزمت الهرب .

وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي ، فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَى رَأْسِهِ ، وهَدَّدْتُه بِالْقَتْلِ إِذا تَتَبَّعَنِي ؛ فاضْطُرَّ لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنَ الظَّفَرِ بِي .



وَسَأَلْتُ الْفَتَى : « أَتُعاهِدُنِي عَلَى الْوَفاءِ ، أَمْ تَعُودُ أَدْراجَكَ كَما عادَ هٰذا الرَّجُلُ ؟ فَإِنِّي عامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذا لاحَ[1] لِي مِنْكَ الْغَدْرُ . »

فَابْتَسَمَ لِيَ الْفَتَى ، وَأَقْسَمَ : إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطاعَةِ أَمْرِي والذَّهابِ مَعِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ . وَظَلِلْنا فِي سَيْرِنا خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، والرِّيحُ مُعْتَدِلَةٌ والبَحْرُ هادِئٌ وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ اللَّحاقَ بِنا بَعْدَ ذٰلِكَ . فَلَمَّا حانَ الْمَساءُ ، دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ ، واعْتَزَمْتُ قَضاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ .

---

(١) ظهر .

٥ — الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أَخْرُجَ لَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَتَعَرَّفَ : أَيْنَ نَحْنُ ؟ وَلٰكِنَّنا سَمِعْنا أَصْواتًا مُرَوِّعَةً ، وَأَحْسَسْنا أَنَّ وُحُوشًا تَزْأَرُ بِالْقُرْبِ مِنَّا ؛ فَأَلَحَّ عَلَيَّ الْفَتَى أَلَّا أُغادِرَ الْمَرْكَبَ حَتَّى لا نَتَعَرَّضَ لِلْهَلاكِ .

وَقَضَيْنا لَيْلَتَنا ساهِرَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزانِ(١) لِدَفْعِ غارَةِ هٰذِهِ الْوُحُوشِ(٢) ، إِذا أَقْبَلَتْ نَحْوَنا .

وَرَأَيْتُ سِرْبًا مِنْها يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنا ؛ فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى أَحَدِها ، فَعادَتِ الْوُحُوشُ أَدْراجَها ، وَهِيَ تَزْمَجِرُ(٣) ، وَقَدْ تَمَلَّكَها الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَتْ دَوِيَّ الرَّصاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَها بِسَماعِهِ عَهْدٌ .



واشْتَدَّتْ حاجَتُنا إِلَى الْماءِ ؛ فَأَرادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أَبْقَى فِي السَّفِينَةِ ، وَأَعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ

(١) مُتَهَيِّئان .   (٢) هجومها .   (٣) تصيح .

الْجَرَّةَ ، فَسَأَلْتُهُ : لِماذا يَتَشَبَّثُ[١] بِالذَّهابِ ؟

فقالَ لِي : «أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْخَطَرِ وَحْدِي . فإذا قُتِلْتُ فِي الطَّرِيقِ سَهُلَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ .»

فَأَكْبَرْتُ[٢] إِخْلاصَهُ ، وَأَبَيْتُ إِلَّا الذَّهابَ مَعَهُ . وَرَسَوْنا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ؛ وابْتَعَدَ الْفَتَى عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ عادَ مُسْرِعًا وَقَدِ اصْطادَ أَرْنَبًا ، واهْتَدَى إِلَى مَكانِ الْماءِ . وَثَمَّ[٣] أَكَلْنا الْأَرْنَبَ مَسْرُورَيْنِ ، واسْتَأْنَفْنا السَّيْرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ .

٦ — صَيْدُ الْأَسَدِ

والْتَفَتَ إِلَيَّ الْفَتَى فَجْأَةً يَحُثُّنِي[٤] عَلَى أَنْ أَبْعُدَ عَنِ الشَّاطِئِ ، وَكانَ بَصَرُهُ حَدِيدًا[٥] ؛ فَلَمَحْتُ أَسَدًا جاثِمًا مِنْ بَعِيدٍ ، وَكانَ ضَخْمَ الْجِسْمِ .

وَقَدِ اشْتَدَّ ذُعْرُ الْفَتَى مِنْهُ ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ حَتَّى لا يُنَبِّهَ الْأَسَدَ . ثُمَّ حَشَوْتُ بُنْدُقِيَّاتِيَ الثَّلاثَ رَصاصًا ، وَصَوَّبْتُ الْأُولَى إِلَى رَأْسِهِ ، وَهُوَ نائِمٌ . وَكانَ الْأَسَدُ واضِعًا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى فِيهِ[٦] ؛

(١) يصر . (٢) عظمت . (٣) هناك . (٤) يستعجلني . (٥) قوياً . (٦) فمه .



فَأصابَتِ الرَّصاصَةُ ساقَهُ ، فَحَطَّمَتْ عَظْمَها . فَوَقَفَ مَذْعُورًا عَلَى سُوقِهِ الثَّلاثِ . واشْتَدَّ زَئِيرُهُ ؛ فَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ رَصاصَةً ثانِيَةً ، فَخَرَّ(١) صَرِيعاً مُجَدَّلًا(٢) يَتَشَحَّطُ(٣) فِي دَمِهِ . وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَفْرَغَ رَصاصَةً فِي أُذُنِهِ ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ ساعَتِهِ .

وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى ما فَعَلْتُ ؛ فَقَدْ أَضَعْتُ ثَلاثَ رَصاصاتٍ فِي قَتْلَةِ الْأَسَدِ ، وَلَيْسَ لَنا فِي لَحْمِهِ غِذاءٌ .

(١) سقط . (٢) مرتمياً . (٣) يضطرب .

وَأَسْرَعَ ٱلْفَتَى إلى الْأَسَدِ ، وَحاوَلَ أنْ يَقْطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فاكْتَفَى بِقَطْعِ إحْدَى يَدَيْهِ ، وَحَمَلها إلىَّ . ثُمَّ تَعاوَنَّا عَلَى سَلْخِهِ فِي مَدَى يَوْمٍ كامِلٍ ، وَجَفَّفَتْهُ ٱلشَّمْسُ فِي مَدَى يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَبْحَرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ — صَوْبَ ٱلْجَنُوبِ — وَقَدْ أَوْشَكَ زادُنا أَنْ يَنْتَهِيَ . ثُمَّ سِرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى ٱلسُّفُنِ ٱلذَّاهِبَةِ مِنْ « أَوْرُبَّةَ » إلَى « غانَةَ » أَوِ ٱلْآتِيَةِ مِنْ « غانَةَ » إلَى « أَوْرُبَّةَ » . وَلَمْ يَكُنْ يُعَزِّينا[1] فِي رِحْلَتِنا شَيْءٌ سِوَى هٰذا ٱلْأَمَلِ ، فَإِذا أَخْفَقَ فَلَيْسَ أَمامَنا إِلَّا ٱلْهَلاكُ .

٧ — عَلَى الشَّاطِئ

وَرَأَيْنا جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ بِالْقُرْبِ مِنَ ٱلشَّاطِئِ وَهُمْ عُراةٌ . وَقَدْ أَرَدْتُ الذَّهابَ إِلَيْهِمْ ، فَحَوَّلَنِيَ ٱلْفَتى عَنْ هٰذا ٱلْعَزْمِ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ ، ما عَدا رَجُلًا مِنْهُمْ كان يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي جائِعٌ ، فَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَرْسُوَ قَرِيبًا . وَأَسْرَعَ ٱثْنانِ مِنْهُمْ فَأَحْضَرا إِلَيَّ خُبْزًا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ ٱللَّحْمِ بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ .

---

(١) يصبرنا .

وَكُنَّا خائِفَيْنِ مِنْهُمْ ، كَما كانوا خائِفِينَ مِنَّا ؛ فَما وَضَعَ الرَّجُلانِ ما أَحْضَراهُ لَنا عَلَى الشَّاطِئِ حَتَّى تَقَهْقَرا رَجاءَ أَنْ يَأْمَنا شَرَّنا . فَلَمَّا أَخَذْنا ٱلزَّادَ وَرَجَعْنا إِلى ٱلسَّفِينَةِ ، عادا إِلى الشَّاطِئِ عِنْدَ إِخْوانِهِما . وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا ما نُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ ؛ فَاكْتَفَيْنا بِشُكْرِهِمْ .

وَإِنَّنا لَكَذٰلِكَ ، إِذْ أَقْبَلَ وَحْشانِ هائِلانِ ، أَحَدُهُما يَجْرِي خَلْفَ ٱلآخَرِ مِنَ الْجَبَلِ إِلى ٱلْبَحْرِ . فَفَرَّ الرِّجالُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا حامِلُ ٱلْعَصا . ثُمَّ هَوَى ٱلْوَحْشانِ إِلى ٱلْبَحْرِ يَسْبَحانِ وَيَلْهُوانِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَحَدُهُما إِلى مَرْكَبِنا حَتَّى كادَ يُدانِينا . فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَصَرَعَتْهُ مِنْ فَوْرِهِ[1] . وظَلَّ يَهْوِي إِلى الْقاعِ مَرَّةً ، ويَطْفُو[2] عَلَى سَطْحِ الْماءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وهُوَ يَعْدُو[3] نَحْوَ ٱلشَّاطِئِ . ولٰكِنَّهُ ماتَ فِي مُنْتَصَفِ ٱلطَّرِيقِ ، وهَرَبَ ٱلْحَيَوانُ ٱلآخَرُ إِلَى ٱلْجَبَلِ . وَضَجَّ الرِّجالُ إِعْجاباً بِنا ، ودَهْشَةً مِنَّا . عَلَى أَنَّهُمْ قَدِ اشْتَدَّ رُعْبُهُمْ ، وسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ ٱلذُّعْرِ . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ لِأُطَمْئِنَهُمْ حَتَّى زالَ خَوْفُهُمْ ، وسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ .

* * *

(١) قتلته الحال . (٢) يعلو . (٣) يجرى .

ثُمَّ تَعاوَنُوا عَلَى سَلْخِ ذٰلِكَ ٱلْحَيَوانِ ، وقَدَّمُوا إِلَيَّ جُزْءًا مِنْ لَحْمِهِ لآكُلَهُ ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ ، وشَكَرْتُ لَهُمْ ذٰلِكَ ، واكْتَفَيْتُ بِجِلْدِ ٱلْحَيَوانِ ، فَأَعْطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زادِهِمْ .

فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شاكِرًا مَسْرُورًا ، ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِى فى حاجَةٍ إِلَى ٱلْماءِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ ٱلْجَرَّةَ فارِغَةً .



فَفهِمُوا ما طَلَبْتُ ، وَمَلَئُوها لِي مِنْ فَوْرِهِمْ . ثُمَّ حَيَّيْتُهُمْ وَٱنْصَرَفْتُ مُسْتَأْنِفًا[1] سَيْرِى نَحْوَ ٱلْجَنُوبِ . وما زِلْتُ كَذٰلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا .

٨ — ٱلْأَمَلُ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ

وَكانَ مَرْكَبِي يَسِيرُ فى ٱلْبَحْرِ مُعْتَسِفًا[2] ، وَقَدْ كِدْتُ أَفْقِدُ ٱلْأَمَلَ فِى النَّجاةِ . وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِى إِلَى أَىِّ مَكانٍ أَذْهَبُ ؟ وأَىَّ غايَةٍ أَيَمَّمُ[3] ؟ واشْتَدَّ ٱرْتِباكِى ، وَزادَ نَدَمِى عَلَى ما أَسْلَفْتُ مِنْ عِصْيانٍ

---

(١) عائداً إلى . (٢) ضالا على غير هدى . (٣) أقصد .

وَالِدَيَّ . وَذَكَرْتُ ما جَرَّنِى إِلَيْهِ الْغُرُورُ والْحَماقَةُ ؛ فاسْتَغْفَرْتُ اللهَ نادِمًا عَلَى ما فَرَطَ مِنِّى ، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُيَسِّرَ لِىَ طَرِيقَ الْخَلاصِ .

وَإِنِّى لَغَارِقٌ فى هٰذِهِ التَّأَمُّلاتِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَتَى عَلَىَّ وَهُوَ يَصِيحُ ، وَقَدْ كادَ الْخَوْفُ يَعْقِدُ لِسانَهُ : « انْظُرْ هٰذِهِ السَّفِينَةَ الْكَبِيرَةَ يا سَيِّدِى ، فَإِنِّى أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ الرُّبَّانِ . »

أَمَّا أنا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِىَ إِلَيْنا .

وَما رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ ، عَلَى بُعْدِ الْمَسافَةِ ، أَنَّها بُرْتُغالِيَّةٌ .

* * *

وَبَذَلْتُ جُهْدِى فِى الدُّنُوِّ[1] مِنَ السَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ راكِبِيها فَلَمْ أُفْلِحْ ؛ فَيَئِسْتُ مِنَ اللَّحاقِ بِهِمْ . ولٰكِنَّ أَحَدَهُمْ رَآنِى بِمِجْهَرِهِ[2] وقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِى ، لِأُشْعِرَهُمْ أَنَّنِى فى خَطَرٍ .

وقد اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلاثِ ساعاتٍ .

وَما عَرَفُوا قِصَّتِى ، حَتَّى أَكْرَمُوا وِفادَتِى[3] ؛ فَأَهْدَيْتُ إِلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ كُلَّ ما مَعِى ، فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزاءً لَهُ عَلَى صُنْعِهِ .

وقَدْ فاضَ قَلْبِى سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِى فِى النَّجاةِ .

---

(١) القرب . (٢) بمنظاره المكبر . (٣) قدومى .

٩ — فِي الطَّرِيقِ إِلَى « الْبَرَازِيلِ »

وكانَتِ السَّفِينَةُ ذاهِبَةً إلى « الْبَرَازِيلِ » . وقَدْ حَظَرَ الرُّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أنْ يَمَسُّوا شَيْئًا مِنْ مَتاعي . وقَدِ اشْتَرَى مَرْكَبِي بِثَمانِينَ جُنَيْهًا ، واشْتَرَى الْفَتى مِنِّي بِسِتِّينَ جُنَيْهًا . ولَمْ يَكُنْ بَيْعُ الْفَتَى الْمِسكِينِ بِمَحْضِ رَغْبَتِي[1] ، وما كانَ لِيُرْضِيَنِي أَنْ أَتْرُكَهُ رَقِيقًا[2] ؛ ولٰكِنَّ الرُّبَّانَ وعَدَنِي بِإِطْلاقِ سَراحِهِ[3] بَعْدَ عَشْرِ سَنَواتٍ ، فَقَبِلتُ ذٰلكَ مُرْغَمًا .

وكانَتْ رِحْلَةً سَعِيدَةً مُرِيحَةً مُوَفَّقَةً . وقَدْ وصَلْنا إلَى « الْبَرازِيلِ » بَعْدَ اثْنَيْنِ وعِشْرِينَ يَوْمًا .

١٠ — فِي « الْبَرازِيلِ »

وقَدْ عَرَّفَنِي الرُّبَّانُ بِأَحَدِ أَعْيانِ « الْبَرازِيلِ » — وكانَ يَمْلِكُ مَزْرَعَةً لِلْقَصَبِ ومَصْنَعًا لِلسُّكَّرِ — وأَوْصاهُ بِي خَيْرًا ؛ فَشَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ عِنايَتَهُ بِي وفَضْلَهُ عَلَيَّ .

ونَفَعَتْنِي صُحْبَةُ هٰذا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ ؛ فَقَدْ عَلَّمَنِي كَيْفَ أَزْرَعُ

---

(١) خالص إرادتي . (٢) عبداً . (٣) تركه حراً .

الْقَصَبَ ، وكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ السُّكَّرَ . وما مَرَّتْ عَلَىَّ أَرْبَعَةُ أَعْوامٍ حَتى نَجَحَتْ أَعْمالِي كُلُّها ، وأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ .

وكُنْتُ كُلَّما ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِفِراقِهِ ، واشْتَدَّ حَنِينِي إِلَيْهِ ، ونَدَمِي عَلَى تَرْكِهِ .

* * *

وتَعَرَّفْتُ — فِي أَثْناءِ إِقامَتِي — بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّارِعِينَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ . فَكُنَّا نَسْمُرُ(١) فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، وكُنْتُ أَذْكُرُ لَهُمْ ما وَقَعَ لِي فِي أَثْناءِ رِحْلَتِي إِلَى « غانَةَ » ؛ وكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوالٍ طائِلَةٍ مِنَ الِاتِّجارِ بِأَشْياءَ تافِهَةٍ كالْمِقَصَّاتِ والْمُدَى(٢) والْمَرايا وَما إِلَى ذٰلِكَ . فاشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى « غانَةَ » ، وأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً ، وطَلَبُوا إِلَيَّ أَنْ أُرافِقَهُمْ فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ ؛ فَعاوَدَنِي الْحَنِينُ إِلَى الْبَحْرِ ، وعَهِدْتُ إِلَى بَعْضِ أَصْحابِي أَنْ يُعْنَى بِمَزْرَعَتِي ومَصْنَعِي فِي أَثْناءِ غِيابِي .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ فِي أَوَّلِ سِبْتَمْبِرَ ١٦٥٩ م ، وهُوَ نَظِيرُ الْيَوْمِ الَّذِي غادَرْتُ فِيهِ وَطَنِي واسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقاءِ ، مُنْذُ ثَمانِيَةِ أَعْوامٍ .

---

(١) نتحدث بالليل . (٢) السكاكين .

الفصل الثالث

فى جَزيرَة نَائِيـة

١ – هُبُوبُ الْعاصِفَةِ

كانَتِ السَّفِينَةُ الَّتى أعْدَدْناها[1] لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ سَفِينَةً كَبيرَةً ، قادِرَةً عَلَى حَمْلِ مِائَةٍ وعِشْرِينَ طُنًّا . وقَدْ زَوَّدْناهــا بِسِتَّةِ مَدافِعَ ، واُخْتَرْنا لَهــا أرْبَعَةً وعِشْرِينَ مَلَّاحاً .



وقَــدْ وَضَعْنا فِيها الْبَضائِعَ الَّتى شَرَيْناها لِنَتَّجِرَ بِهــا فى بِلادِ « إفْرِيقِيَّــةَ » ؛ وهِىَ

(١) هيأناها .

مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مِقَصَّاتٍ وفُئُوسٍ ومَطارِقَ ومَرَايا صَغِيرَةٍ وأَزِرَّةٍ لِلمَلابِسِ وما إلَى ذٰلكَ .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ مُيَمِّمَةً[1] شاطِئَ « إفْرِيقِيَّـــةَ » .

وقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنا — فى الْيَوْمِ الثّالِثَ عَشَرَ — عاصِفَةٌ هَوْجاءُ لَبِثَت اثْنَىْ عَشَرَ يَوْماً ، لا تَهْدَأُ إلَّا رَيْثَما تَشْتَدُّ وتَعْنُفُ ، وَلا تَمُرُّ بِنا لَحْظَةٌ إلَّا أَنْذَرَتْنا بِالْغَرَقِ .

وهٰكذا ظَلِلْنا نَتَرَقَّبُ الْهَلاكَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنا طَرِيقَنا فى الْبَحْرِ، خِلالَ هٰذِهِ الْأَيَّامِ الَّتى هَبَّتْ فِيها الْعاصِفَةُ .

٢ — زَوْرَقُ النَّجاةِ

ثُمَّ رأَيْنا — عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ — أَرْضاً تَبْدُو لَنا مِنْ بَعِيدٍ ؛ فَلاحَ لَنا أَمَلٌ كَبِيرٌ فى النَّجاةِ . ولٰكِنَّنا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنا ذٰلِكَ الْأَمَلَ ، وحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ والْقُنُوطُ . فَقَدْ قَذَفَتِ الْعاصِفَةُ بِسَفِينَتِنا إلى كَثِيبٍ[2] مِنَ الرَّمْلِ . وكانَتِ الصَّدْمَةُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً ؛

---

(١) قاصدة . (٢) تل .



فَتَعَطَّلَتِ السَّفِينَةُ ، وغَمَرَتْها الأَمْواجُ الْهائِجَةُ ؛ فَلَمْ نَجِدْ مِنَ الْهَلاكِ بُدًّا ، وعَرَفْنا أَنَّ آخِرَتَنا قَدْ دَنَتْ .

عَلَى أَنَّنا لَمْ نَسْتَسْلِمْ لِلْيأْسِ ؛ فَأَسْرَعْنا إِلَى زَوْرَقِ النَّجاةِ ، فَأَنْزَلْناهُ فى الْبَحْرِ ، وبَذَلْنا كُلَّ ما فى وُسْعِنا لِلْخَلاصِ . وظَلِلْنا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوانا ، حَتَّى أَصْبَحْنا عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ ونِصْفِ مِيلٍ مِنَ الشّاطِئِ ، حَيْثُ دَهِمَتْنا[١] مَوْجَةٌ طاغِيَةٌ ؛ فَخُيِّلَ إِلَينا أَنَّ جَبَلًا مِنَ الْماءِ قَدِ انْقَضَّ[٢] عَلَيْنا ، فانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ فى الْحالِ .

ولَمْ أَرَ بِجانِبِي أَحَدًا مِنْ رِفاقِي ، ولَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَصِيرَهُمْ[٣] .

---

(١) غمرتنا . (٢) سقط . (٣) نهايتهم .

٣ — النَّجاةُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أنا فَقَدْ لَعِبَتْ بِيَ الأَمْواجُ ، ثُمَّ قَذَفَتْ بِي إِلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ ، وكانَتِ الصَّدْمَةُ عَنِيفَةً ، فَأُغْمِيَ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَفَقْتُ بَعْدَ قَليلٍ . وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّى أَنِّي أَفَقْتُ قَبْلَ أن يَسْتَأْنِفَ الْبَحْرُ ثَوْرَتَهُ .

وَما رأَيْتُ الْمَوْجَةَ قادِمَةً عَلَيَّ — لِتَبْتَلِعَنِي فى طَيِّها — حَتَّى أَمْسَكْتُ بِالصَّخْرَةِ مُتَشَبِّثًا بِكُلِّ قُوَّتِي ، حَتَّى تَنْحَدِرَ[1] الْمِياهُ عَنِّى .

ثُمَّ هَدَأَتْ ثائِرَةُ الْبَحْرِ قليلًا ؛ فَحاوَلْتُ إِمْكانِى ، وبَذَلْتُ جُهْدِى ، حتَّى بَلَغْتُ الشَّاطِئَ ، وأنا لا أَكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ مِنَ الْغَرَقِ .

٤ — بَعْدَ النَّجاةِ

وشَعَرْتُ بِفَرَحٍ شَديدٍ حينَ رَأَيْتُنِي قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلاكِ . وأَجَلْتُ لِحاظِي[2] فِي أَنْحاءِ الْبَحْرِ ، أَتَلَمَّسُ رُؤْيَةَ أَحَدٍ مِنْ رِفاقِي ؛

(١) تنصرف . (٢) أدرت عيني .



فَلَمْ أرَ إلَّا قُبَّعاتٍ ثلاثًا ، وقَلَنْسُوَةً(١) ، وَنعْلًا ، طافِيَةً عَلَى سَطْحِ الماءِ . فَأَيْقَنْتُ أنَّ رِفاقِي جَمِيعًا قَدْ هَلَكُوا ، وَلَمْ تُكْتَبْ لَهُمُ النَّجاةُ .

وَقَدْ تأَلَّمْتُ لِمَوْتِ هؤُلاءِ الأَصْحابِ ، كَما تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا ؛ فَقَدْ كُنْتُ — حِينَئِذٍ — فِي حالٍ يُرْثَى لها(٢) ، فَثِيابِي مُبْتَلَّةٌ ، وَلَيْسَ مَعِي ثِيابٌ أَسْتَبْدِلُها بِها .

وَشَعَرْتُ بِأَلَمِ الجُوعِ ، وَلَيْسَ عِنْدِي ما أَتَبَلَّغُ بِهِ(٣) . وَأَلَحَّ(٤) عَلَيَّ الضَّعْفُ ، وَتَخاذَلَتْ أَعْضائِي ، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِرْدادِ قُوايَ بَعْدَ أَنْ أَضْناها التَّعَبُ وَالكِفاحُ .

(١) غطاء رأس (٢) تدعو إلى الشفقة . (٣) ما أستبقي به الحياة من الطعام (٤) اشتد.

٥ — بَيْنَ أغْصانِ شَجَرَةٍ

وَخَشِيتُ أنْ يَدْهَمَنِي(١) ٱللَّيْلُ ؛ فَأُصْبِحَ فَرِيسَةً لِلْوُحُوشِ ، وَلَيْسَ مَعِي سِلاحٌ أصْطادُ بِهِ — مِنَ الْحَيَوانِ — ما أَقْتاتُ بِهِ ، أوْ أدْفَعُ بِهِ عَنِّي غائِلَةَ الْوُحُوشِ ٱلْعادِيَةِ(٢) إذا حاوَلَتِ ٱفْتِراسِي . فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ — حِينَئِذٍ — غَيْرُ مُدْيَةٍ(٣) لا غَناءَ فِيها(٤) . فَتَمَثَّلَ لِي حَرَجُ مَرْكَزِي ، ورَأَيتُ ٱلْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوباً(٥) مُظْلماً . وصِرْتُ أعْدُو(٦) فِي كُلِّ مَكانٍ ، وَقَدْ أَذْهَلَنِيَ الْفَزَعُ ، وأنْسانِيَ الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ .

ثُمَّ أقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فاشْتَدَّ رُعْبِي ، وَلَمْ أجِدْ لِي مَناصاً(٧) مِنَ التَّفْكِيرِ فِي مَكانِ نَوْمِي . فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالْقُرْبِ مِنِّي ، وَجَلَسْتُ بَيْنَ أغْصانِها الْمُشْتَبِكَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إلَى أقْصَى دَرَجاتِ ٱلْإعْياءِ وٱلتَّعَبِ ؛ فَغَلَبَنِي ٱلنَّوْمُ طُولَ لَيْلِي ، وَلَمْ أسْتَيْقِظْ

(١) يفاجئني . (٢) شر الحيوانات المفترسة . (٣) سكينة . (٤) لا فائدة منها .
(٥) مخوفاً . (٦) أجري . (٧) نجاة .



إلَّا فِى ضُحَى ٱلغَدِ ؛ فَرَأَيتُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً ، وٱلْجَوَّ صَحْوًا ، وٱلْبَحْرَ هادِئًا جَمِيلًا .

٦ — السَّفِينَةُ

وَأَجَلْتُ لِحاظِى[1] فى أرْجاءِ ٱلْبَحْرِ ؛ فاشْتَدَّتْ دَهْشَتِى حِينَ رَأَيتُ السَّفِينَةَ جاثِمَةً[2] عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِن ٱلجَزِيرَةِ . وكانَ ٱلمَدُّ[3] قَدْ أخْرَجَها مِنَ الكَثِيبِ[4] ، وقَذَفَ بِها قَرِيبًا مِنَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتِى قَذَفَتْنِى

(١) درت ببصرى . (٢) باقية . (٣) امتداد الماء . (٤) التل من الرمل .

إِلَيْها الأَمْواجُ أَمْسِ . فَعَنَّ(١) لِي رَأْيٌ سَدِيدٌ(٢) ، ذٰلِكَ : هُوَ أَنْ أُسْرِعَ إِلَيْها ، فَآخُذَ مِنْها أَهَمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ ، قَبْلَ أَنْ تَطْغَى ٱلْأَمْواجُ على السَّفِينَةِ ، وَيَطْوِيَها الْبَحْرُ فِي قَرارِهِ . وشَجَّعَنِي عَلَى ذٰلِكَ هُدُوءُ الْبَحْرِ وانْخِفاضُ ٱلْمَدِّ .

وَكانتِ ٱلحَرارَةُ شَدِيدَةً وقتَ ٱلظَّهِيرَةِ ؛ فَخَلَعْتُ ثِيابِي ، وسَبَحْتُ فِي الْماءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ . وَدُرْتُ حَوْلَها ؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً لِلصُّعُودِ إِلَيْها لِٱرْتفاعِها . وقَدْ كِدْتُ أَيْأَسُ مِنْ إِدْراكِ هٰذِهِ ٱلْغايَةِ ، لَوْلا أَنَّنِي ظَفِرْتُ بِحَبْلٍ مُتَدَلٍّ ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ ٱلسَّفِينَةِ بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ . ورَأَيْتُ الْماءَ قدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ ؛ ولٰكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَها ، وَلَمْ يُتْلِفْ كُلَّ ما تَحْوِيهِ مِنْ مَئُونَةٍ وذَخائِرَ . وكانَ أَوَّلَ ما يَشْغَلُنِي — حِينَئِذٍ — هُوَ ٱلْبَحْثُ عَنِ الطَّعامِ والْماءِ . فَأَكَلْتُ مِنَ ٱلزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ ، وشَرِبْتُ مِنَ ٱلْماءِ حَتَّى ٱرْتَوَيْتُ .

---

(١) خطر .   (٢) صائب .

٧ — الْمَرْكَبُ ٱلصَّغِيرُ

ولَمْ أُضِعْ وَقْتِي عَبَثًا . فَأَسْرَعْتُ إِلَى جَمْعِ ٱلْأَلْوَاحِ الْمُتَنَاثِرَةِ ، وَٱلْأَعْمِدَةِ ٱلْمُحَطَّمَةِ ، وَٱلْأَشْرِعَةِ ٱلْمُمَزَّقَةِ ، وأَلَّفْتُ مِنْها مَرْكَبًا صَغِيرًا . ثُمَّ كَسَرْتُ ثَلاثَةَ صَنادِيقَ وأَفْرَغْتُ ما فِيها . ثُمَّ أَنْزَلْتُها بِالْحِبالِ إلى ذٰلِكَ الْمَرْكَبِ ٱلصَّغِيرِ ، ومَلَأْتُها بِالْخُبْزِ والرُّزِّ وٱلْجُبْنِ وٱلْقَدِيدِ[١] ورَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ كَمِّيَّةً قَلِيلَةً مِنَ ٱلْقَمْحِ والشَّعِيرِ وٱلْبُرْغُلِ ، كُنَّا قَدْ أَحْضَرْناها لِتَغْذِيَةِ طُيُورِنا ودَواجِنِنا ؛ فوَضَعْتُها فِي أَحَدِ ٱلصَّنادِيقِ .

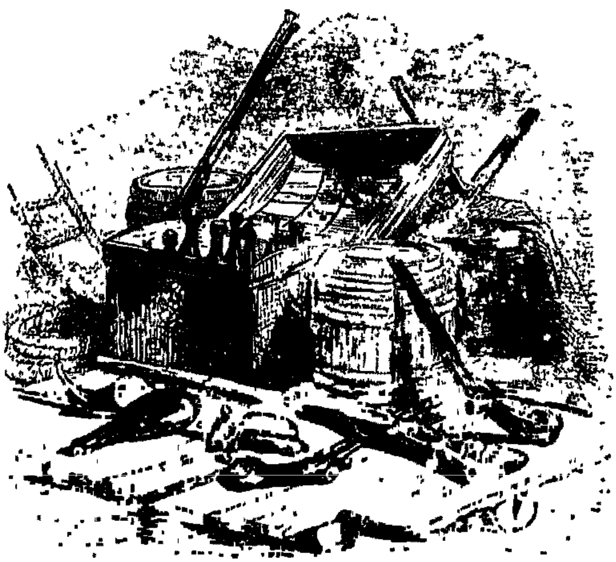


(١) اللحم اليابس المحفوظ .

وإنِّى لَمُنْهَمِكٌ فى عَمَلِى ، إذْ لاحَتْ مِنِّى الْتِفاتَةٌ ؛ فَرَأَيْتُ الْمَدَّ يَرْتَفِعُ إلى الشَّاطِئِ وَيَجْذِبُ ثِيابِىَ الْغَرِيقَةَ . وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُها طافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْماءِ .

* * *

عَلَى أَنَّنِى رَأَيْتُ فِى السَّفِينَةِ — مِنَ الثِّيابِ — ما عَوَّضَنِى عَنْها . فَأَخَذْتُ مِنْها ما اسْتَطَعْتُ ، وحَمَلْتُ مَعِى — مِنَ الْآلاتِ وَالْعُدَدِ — ما لا غِنَى لِىَ عَنْهُ . وَقَدْ ظَفِرْتُ بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ ؛ فَكانَ عِنْدِى أَثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ قاطِبَةً[1] ، فَأَلْقَيْتُ بِهِ فِى الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ .



* * *

وَظَفِرْتُ ـ فِى أَثْناءِ بَحْثِى ـ بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقِيَّتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَمْلُوهُما

---

(١) جميعاً .



الصَّدَأُ، وَكِيس مِنَ الرَّصاصِ، وَعِدَّةِ أَكْياسٍ من الْبارُودِ .

وَكانَ بِالسَّفِينَةِ بَرامِيلُ ثَلاثَةٌ مَمْلوءَةٌ بارُودًا ، فَبَحَثْتُ عَنْها حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْها ؛ فَرَأَيْتُ الْماءَ قَدْ أَتْلَفَ بِرْمِيلًا مِنْها . فَحَمَلْتُ الْبِرْمِيلَيْنِ الْباقِيَيْنِ إِلَى الْمَرْكَبِ ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذْهَبَ بِمَرْكَبِي إِلى الشَّاطِئِ . وَظَفِرْتُ — بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ — بِثَلاثَةِ مَجادِيفَ مُحَطَّمَةٍ ، وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ ؛ فَاسْتَوْدَعْتُها سَفِينَتِي[1] .

وَحَمَلَنِيَ الْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ ، حَيْثُ انْتَهَى بِي إِلى مكانٍ لا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَكانِ الَّذِي حَلَلْتُ فيهِ أَمْسِ .

(١) حفظتها فيها .

الفصل الرابع

الوطنُ الجديد

١ — عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كان أَوّلَ ما عُنِيتُ بهِ أَنْ أَرْتادَ[1] هٰذِهِ ٱلْأَرْضَ ٱلْمَجْهُولَةَ ٱلّتى قَذَفَتْنِي إلَيْها ٱلْمَقادِيرُ، لَعَلِّي أَهْتَدِي إلى مَسْكَنٍ آوِي إلَيْهِ.

وَكُنْتُ — حِينَئِذٍ — أَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ ٱلْأَرْضِ. فَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ: هَلْ قَذَفَتْنِي ٱلْأَمْواجُ إلَى جَزِيرَةٍ أَمْ قارَّةٍ؟ إلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ، أَمْ مُوحِشَةٍ؟ إلَى مَكانٍ أَمِينٍ مُطْمَئِنٍّ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ؟ إلى أَرْضٍ يَقْطُنُها ٱلْمُتَحَضِّرُونَ، أَمِ ٱلْهَمَجُ، أَمِ ٱلْوُحُوشُ ٱلْمُفْتَرِسَةُ؟

وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي أَنْحائِها؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شاهِقًا يَلُوحُ لِي عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ تَقْرِيبًا. فَأَخَذْتُ بُنْدُقِيَّةً وَمُسَدَّسًا، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ. فَرَأَيْتُهُ وَعْرَ ٱلْمُرْتَقَى[2]، وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إلَّا بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ.

---

(١) أتعرف. (٢) صعب المصعد

وَقَدْ تَمَلَّكَنِيَ الْحُزْنُ والأَلَمُ ، إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَكانَ الَّذِى حَلَلْتُهُ لَيْسَ إِلَّا جَزِيرَةً . وكُنْتُ — كَيْفَما أَدَرْتُ لِحَاظِى — لا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ يَكْتَنِفُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ(١) ، وشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحانِ لِى عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ غَرْبًا .

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِى حَلَلْتُها عازِبَةٌ(٢) ، قَفْراءُ غَيْرُ مَأْهُولَةٍ(٣) ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيها وُحُوشٌ مُفْتَرِسَةٌ . أَمَّا الإِنْسُ فَلا سَبِيلَ إِلى وُجُودِهِمْ فِى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقاحِلَةِ(٤) .

٢ — الطَّلْقَةُ الأُولَى

عَلَى أَنَّنِى رَأَيْتُ جَمْهَرَةً(٥) مِنَ الطُّيُورِ الْغَرِيبَةِ — وَأَنا عائِدٌ إِلى حَيْثُ جِئْتُ — فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِى إِلَى طائِرٍ مِنْها كانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجارِ الْغابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّى .

ولَعَلَّ هٰذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تُطْلَقُ فِيها بُنْدُقِيَّةٌ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ! وَقَدْ ذُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هٰذِهِ الطَّلْقَةَ الْمُفْزِعَةَ ، واشْتَدَّ

(١) يحيط بها . (٢) بعيدة . (٣) لا يسكنها أحد .
(٤) التى لا نبات فيها . (٥) جماعة .

ارْتِباكُها ، وَعَلَتْ صَيْحاتُها . ورَأَيْتُ هٰذا الطَّائِرَ يُشْبِهُ الْباشِقَ ، وإنْ كانَ قَليلَ اللَّحْمِ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

٣ — كُوخٌ مِنْ صَناديقَ

ثُمَّ عُدْتُ أدْراجِي[1] ، وَظَلِلْتُ أُفْرِغُ ما أحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ وَأُرَتِّبُهُ ، حَتَّى انْقَضَى النَّهارُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَلَمْ أدْرِ كَيْفَ أَنامُ مُطْمَئِنًّا ، آمِناً مِنْ غارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ — بَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ — إلى طَرِيقَةٍ ناجِحَةٍ ؛ فَأَدْنَيْتُ[2] الصَّنادِيقَ الَّتِي أحْضَرْتُها مِنَ السَّفينَةِ ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ مِنْها كُوخًا آوِي إلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَرَأَيْتُنِي فِي حاجَةٍ إلى حِبالِ السَّفِينَةِ وَأشْرِعَتِها ؛ فَنَوَيْتُ الذَّهابَ إلَيْها فِي الْيومِ التَّالِي وَقْتَ انْخِفاضِ الْمَدِّ ، قَبْلَ أنْ تُغْرِقَها أَوَّلُ عاصِفَةٍ تَهُبُّ عليْها مِنَ الْبَحْرِ .

٤ — عَوْدَةٌ إِلَى السَّفِينَةِ

ولَمَّا جاءَ الْغَدُ خَلَعْتُ مَلابِسِي إلَّا قَمِيصًا مُمَزَّقًا وسِرْوالًا ونَعْلًا خَفِيفَةً ،

(١) رجعت من حيث أتيت . (٢) قربت .

وذَهَبْتُ إلى السَّفينَةِ ، وأَحْضَرْتُ مِنْها كَثيرًا مِنَ الذَّخائِرِ [١] الَّتِي كُنْتُ فِي أَشَدِّ الحاجَةِ إِلَيْها . وقدْ ظَفِرْتُ بِغِرارَتَيْنِ [٢] مَمْلوءَتَيْنِ مَسامِيرَ ، كَما ظَفِرْتُ بِعُدَّةِ النِّجارَةِ ، وفيها مِسَنٌّ ، واثْنَتا عَشْرَةَ قَدُومًا ، وغيرُ ذٰلِكَ . وجَمَعْتُ كُلَّ ما وجَدْتُهُ — مِنَ الثِّيابِ وأَشْرِعَةِ السَّفينَةِ والأَغْطِيَةِ — وعُدْتُ إلى كُوخِيَ الصَّغيرِ . وقدْ شَجَّعَنِي هٰذا النَّجاحُ ، وأَكْسَبَنِي قُوَّةً ونَشاطًا عَظِيمَيْنِ . وكُنْتُ أَخْشَى أنْ تَلْتَهِمَ بَعْضُ الوُحُوشِ ما تَرَكْتُهُ مِنَ الزّادِ [٣] ، ولٰكِنَّنِي اطْمَأْنَنْتُ — بَعْدَ عَوْدَتِي — وزالَتْ مَخاوِفِي ؛ إِذْ لَمْ أَعْثُرْ لِهٰذِهِ الوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ . عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ حَيَوانًا — أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالقِطِّ — جالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّنادِيقِ . وما رَآنِي حَتَّى فَرَّ مِنِّي ، ثُمَّ وقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ ، وظَلَّ يُنْعِمُ [٤] نَظَرَهُ فِيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْدُوَ عَلَى مَلامِحِهِ الْخَوْفُ . فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتِي ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ ، ولَمْ يُحاوِلِ الفِرارَ . فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مِنَ الْخُشْكُنانِ [٥] ، فاقْتَرَبَ مِنْها وشَمَّها وتَذَوَّقَها ، ثُمَّ ابْتَلَعَها مِنْ فَوْرِهِ ، وبَدا عَلَى مَلامِحِهِ السُّرُورُ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَها ، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا ، لِأَنَّ زادِيَ قَلِيلٌ ،

---

(١) الأشياء الثمينة المحفوظة . (٢) زكيبتين . (٣) الطعام الذى يتخذ للسفر .
(٤) يدقق . (٥) السكويت .

ولَيْسَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أنْ أُسْرِفَ[1] فِي ٱلْأَخْذِ مِنْهُ .

ولَمَّا يَئِسَ ٱلْقِطُّ مِنْ عَطائِي ، ذَهَبَ إلى سَبِيلِهِ !

٥ — إعْدادُ ٱلْمَسْكَنِ

وَفَكَّرْتُ فِي إعْدادِ مَسْكَنٍ يُؤَمِّنُنِي مِنَ ٱلْوُحُوشِ ، ويَحْفَظُ أَمْتِعَتِي مِنَ التَّلَفِ ، ويَقِيها غائِلَةَ ٱلْأَمْطارِ وحَرارَةَ الشَّمْسِ . فَبَنَيْتُ خَيْمَةً مِنَ ٱلشِّراعِ ٱلَّذِي أحْضَرْتُهُ ، وثَبَّتُّها بِالْأَوْتادِ[2] ، ووَضَعْتُ فِي تِلْكَ ٱلْخَيْمَةِ كلَّ ما أحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ . ثُمَّ سَوَّرْتُ ٱلْخَيْمَةَ[3] بِالصَّنادِيقِ وٱلْبَرامِيلِ ، وسَدَدْتُ بابَها مِنَ ٱلدَّاخِلِ بِأَلْواحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ ، ووَضَعْتُ خَلْفَها صُنْدُوقًا فارِغًا . ثمَّ وضَعْتُ مُسَدَّسَيْنِ تَحْتَ وِسادَتِي ، ونِمْتُ أهْدَأَ ما أكُونُ بالًا حَتَّى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ .

٦ — ذَخائِرُ السَّفِينَةِ

ولَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّنِي حَصَلْتُ عَلَى ما يَكْفِينِي ، بَلْ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي .

---

(١) أكثر . (٢) قطع من الخشب ونحوه مثبتة فى الأرض . (٣) جعلت لها سوراً .

ولٰكِنَّ بقاءَ ٱلسَّفِينَةِ أطْمَعَنِي فِي ٱلْحُصُولِ عَلَى كلِّ ذَخائِرِها ، ما دُمْتُ قادِرًا عَلَى ٱلذَّهابِ إِلَيْها ، فَلَمْ يَهْدَأْ لِي بالٌ ، ولَمْ يَقَرَّ لِي قرارٌ . وعَقَدْتُ ٱلْعَزْمَ عَلَى ٱلتَّزَوُّدِ[1] مِنْها كُلَّ يَوْمٍ . وقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْها — بَعْدَ ذٰلِكَ — سِتَّةَ أيَّامٍ مُتَعاقِبَةً[2] ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَفْرَغْتُ كُلَّ ما فِيها مِنْ زادٍ وذَخائِرَ . ولٰكِنَّنِي دَهِشْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلسَّابِعِ ؛ إِذْ وَجَدْتُ بِرْمِيلًا كَبِيرًا مَمْلُوءًا خُشْكُنانًا[3] . فَأَفْرَغْتُهُ ، بَعْدَ أَنْ وضَعْتُهُ فِي قِطَعٍ مِنَ ٱلْأَشْرِعَةِ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلى خَيْمَتِي مَسْرُورًا راضِيًا .

٧ — الزَّوْرَةُ الْأَخِيرَةُ

وذَهَبْتُ فِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي إِلى ٱلسَّفِينَةِ — كَعادَتِي — ولٰكِنَّنِي شَعَرْتُ بِهُبُوبِ ٱلرِّياحِ ، فَلَمْ أُبالِ ، وَلَمْ أَنْثَنِ[4] عَنْ عَزِيمَتِي . وقَدْ ظَفِرْتُ فِي هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ بِثَلاثِ مَواسٍ[5] ، وكانَتْ فِي غُرْفَةِ الرُّبَّانِ ، كَما ظَفِرْتُ بِمِقَصَّيْنِ صَغِيرَيْنِ وعِدَّةِ مَلاعِقَ ، وما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَدَواتِ النَّافِعَةِ . ثُمَّ لاحَتْ مِنِّيَ ٱلْتِفاتَةٌ ، فَرَأَيْتُ سِتَّةً وثَلاثِينَ جُنَيْهًا مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ .

---

(١) الأخذ . (٢) متوالية . (٣) بسكويتة . (٤) لم أرجع .
(٥) جمع موسى ، وهي الآلة التي يحلق بها .

فابْتَسَمْتُ — حِينَئِذٍ — ساخِرًا؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهٰذِهِ ٱلنُّقُودِ حاجَةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ . ولقَدْ هَمَمْتُ بِإِلْقائِها فِي ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ عَنْ ذٰلِكَ ، ووضَعْتُها فى صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ . ورَأيتُ السَّماءَ تَتَلَبَّدُ بِالْغُيُومِ ؛ فَأَسْرَعْتُ بِالْعَوْدَةِ إلى كُوخِي . وقَدْ لَقِيتُ عَناءً شَدِيدًا فِي مُغالَبَةِ ٱلْأَمْواجِ ، وَلٰكِنَّنِي وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سالِمًا بِحَمْدِ ٱللهِ .

٨ — غَرَقُ السَّفِينَةِ

وما عُدْتُ إِلَى خَيْمَتِي حَتَّى عَنُفَتِ الرِّياحُ ، واشْتَدَّ اصْطِخابُ ٱلْأَمْواجِ ، وظَلَّ ٱلْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هائِجًا طُولَ ٱللَّيْلِ .

ولَمَّا أقْبَلَ الصَّباحُ دُرْتُ بِٱلْحاظِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ؛ فَلَمْ أَجِدْ لِلسَّفِينَةِ أَثَرًا . فَعَلِمْتُ أنَّ الْعاصِفَةَ أَغْرَقَتْها ؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْها ، لِأَنَّنِي لَمْ أَدَّخِرْ وُسْعًا فِي نَقْلِ كُلِّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْها فِي ٱلْأَيَّامِ السَّابِقَةِ .

٩ — ٱلْبَيْتُ الجَدِيدُ

لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ — بَعْدَ ذٰلِكَ — إِلَّا أنْ أُفَكِّرَ فِي وَسِيلَةٍ تَصُدُّ عَنِّي

غائلةَ الْمُعتدينَ ، مِنْ بَني الإنسانِ ، أوْ مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ . وظَلِلْتُ أُفكّرُ فِي بناءِ الْبَيْتِ الَّذي أُشيِّدُهُ ، ولَمْ أَدْرِ : هَلْ أَحْفِرُ كَهْفاً أمْ أُقيمُ خَيْمَةً ؟ ثُمَّ قَرَّ رَأْيي عَلَى أنْ أجْمعَ بَيْنَهُما . ورَأَيْتُ المَكانَ الَّذي حَلَلْتُهُ لا يَصْلُحُ لِإقامَتِي إقامَةً دائِمَةً ؛ لِأَنَّهُ فِي أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ سَبِخَةٍ[1] وَبَقائِي فِيهِ مُضِرٌّ بِصِحَّتِي ، وهُوَ — إِلَى ذٰلِكَ — لَيْسَ قَرِيباً مِنَ الْماءِ الْعَذْبِ . فَبَحَثْتُ عَنْ مَكانٍ آخَرَ أَكْثَرَ مُلاءمَةً لِي . وَهَدانِيَ الْبَحْثُ إِلَى الْمَكانِ الَّذي أَرَدْتُ ؛ فَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى سَهْلٍ صَغِيرٍ فِي سَفْحِ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ صَخْرِيٍّ ، وبِجانِبِهِ ماءٌ عَذْبٌ ، وهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى الْبَحْرِ . وكانَ فِي أَعْلَى ذٰلِكَ التَّلِّ صَخْرَةٌ ناتِئَةٌ[2] تَقِينِي وَهَجَ الشَّمْسِ ، وتَحْمِينِي مِنِ اعْتِداءِ الْمُغِيرِينَ ، مِنْ إِنْسٍ وحَيَوانٍ . وكانَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ مَحْفُورَةً تُشْبِهُ الْكَهْفَ ؛ فَبَنَيْتُ خَيْمَتِي أَمامَها ، وَثَبَّتُّ أَوْتادَها؛ وشَعَرْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ بِمَأْمَنٍ مِنْ كُلِّ اعْتِداءٍ. ولَمْ أَجْعَلْ لِبَيْتِي باباً أَدْخُلُهُ ؛ بَلْ سُلَّماً أَتَسَلَّقُهُ . فَإِذا دَخَلْتُ الْبَيْتَ رَفَعْتُ السُّلَّمَ إِلَى داخِلِهِ ، ونِمْتُ — طُولَ لَيْلِي — ناعِمَ الْبالِ ، مُطْمَئِنًّا ، قَرِيرَ الْعَيْنِ . ثُمَّ نَقَلْتُ فِي هٰذا الْحِصْنِ كُلَّ ما لَدَيَّ مِنْ مَتاعٍ وَزادٍ وذَخائِرَ . ورَفَعْتُ

---

(١) ذات نز وملح . (٢) مرتفعة .

– فِي أعْلَى الْمَسْكَنِ – سَقْفًا مُؤَلَّفًا من شِراعَيْنِ : أَحَدُهُما فَوْقَ الْآخَرِ ، وطَلَيْتُهُما بِالْقارِ [1] ، ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلى حَفْرِ مَكانٍ فى تِلْكَ الصَّخْرَةِ لِيَكُونَ مَخْزَنًا صَغِيرًا فِي مَنْزِلِي.



وَظَلِلْتُ جادًّا فى عَمَلِي.

وإِنِّى لَكَذٰلِكَ إِذْ بَرَقَ الْبَرْقُ ورَعَدَ الرَّعْدُ ؛ فاشْتَدَّ جَزَعِي ، وخَشِيتُ أَنْ يَشْتَعِلَ الْبارُودُ ، فَيُدَمِّرَ كلَّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ.

وَثَمَّ [2] وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّها إلى تَأْمِينِي [3] مِنْ هٰذا الْخَطَرِ ؛ فَصَنَعْتُ أَكْياسًا كَثِيرَةً ، ووَضَعْتُ فِيها الْبارودَ ، وفَرَّقْتُها فِي أَنْحاءٍ مُتَباعِدَةٍ ؛

(١) الزفت . (٢) هناك . (٣) حفظى .

حتّى إذا اشْتَمَلَتِ النّارُ فِي أحَدِها لَمْ تَتَّصِلْ بِغَيْرِهِ .

وبِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمِنْتُ أنْ يَشْتَمِلَ كلُّ ما عِنْدِي مِنَ الْبارُودِ مَرَّةً واحِدَةً . وقَدْ أنْجَزْتُ هٰذا الْعَمَلَ فِي خِلالِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً مُتَوالِيَةٍ ، ووَضَعْتُ الْبارُودَ فِي مِائَةِ غِرارَةٍ[1] أَخْفَيْتُها فِي ثُقُوبِ الصَّخْرِ ، لِآمَنَ عَلَيْها الرُّطُوبَةَ . وكانَتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبارُودِ لا يَقِلُّ وَزْنُها عَنْ مِائَةٍ وأرْبَعِينَ رِطْلًا . وقَدِ اشْتَدَّ حِرْصِي عَلَيْها ، ولَمْ يَرْتَحْ بالِي إلّا بَعْدَ أنْ وَثِقْتُ من سلامَتِها ، وذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْها مِنَ التَّلَفِ .

---

(١) زكيبة .

الفصل الخامس

الزِّلْزالُ

١ — جِداءُ الْجَزِيرَةِ

لَمْ أَكُفَّ عَنِ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا فِي فَتَراتٍ قَلِيلَةٍ ، كُنْتُ أَخْرُجُ — فِي أَثْنائِها — مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لِأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي مِنْ عَناءِ الْعَمَلِ ، أَوْ لِأَصْطادَ بَعْضَ الْحَيَوانِ لِغِذائِي ، أَوْ لِأَرْتادَ أَنْحاءَ الْجَزِيرَةِ الْمَجْهُولَةِ .



وَقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِي

— فِي أوَّلِ يَوْمٍ — ما بالْجَزِيرَةِ مِنْ جِدْيانٍ ، وابْتَهَجْتُ حِينَ رأيْتُها . وَلٰـكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ ؛ لِأَنَّنِي رَأيْتُها مُتَوَحِّشَةً ماكِرَةً سَرِيعَةَ العَدْوِ ، لا أكادُ أقْتَرِبُ مِنْها حَتَّى تَفِرَّ هارِبَةً . وَقَدْ حاوَلْتُ أنْ أصْطادَ جَدْيًا مِنْ هٰذِهِ الْجِداءِ ، فَلَمْ أسْتَطِعْ ؛ لِسُرْعَتِها وَخِفَّتِها . وَلٰـكِنَّ الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي على أمْرِي ، وَظَلِلْتُ أُراقِبُ حَرَكاتِها فِي رَوْحاتِها وَجَيْئاتِها ؛ فَرَأيْتُها تَفْزَعُ مِنِّي هارِبَةً ، إذا أقْبَلْتُ عَلَيْها مِنَ الْوادِي وَكانتْ فَوْقَ الصُّخُورِ . فَإذا كُنْتُ أنا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكانتْ هِيَ فِي الْوادِي تَرْعَى ، لَمْ تَتَحَرَّكْ ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي . فَعَلِمْتُ أنَّ بَصَرَها مُنْصَرِفٌ إلى أسْفَلَ ، فَهِيَ لا تَرْفَعُهُ إلى فَوْقُ ؛ وَثَمَّ لا تَرَى ما فَوْقَها . وَرَأيْتُ أنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُنِي من اقْتِناصِها[1] بِسُهُولَةٍ ، هِيَ أنْ أُشْرِفَ عَلَيْها مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ ، وَأُصَوِّبَ رَصاصِي إلَيْها . وَقَدْ نَجَحَتْ هٰذِهِ الْحِيلَةُ ، وَأصابَتْ أوَّلُ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّتِي ماعِزًا فَقَتَلَتْها . وكانَ مَعَها جَدْيٌ صَغِيرٌ ؛ فَحَمَلْتُها على كَتِفِي ، وَتَبِعَنِي صَغِيرُها حَتَّى وَصَلْتُ إلى مَسْكَنِي . وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي مُلاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِي ؛ فَلَمْ أُفْلِحْ .

---

(١) صيدها .

وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ ما قَدَّمْتُهُ لَهُ مِنَ ٱلطَّعامِ ؛ فاضْطُرِرْتُ إِلَى ذَبْحِهِ وأَكْلِهِ.

٢ — مُذَكِّراتٌ يَوْمِيَّةٌ

وهٰكذا ٱستَطَعْتُ أَنْ أُنَظِّمَ حَياتِي — مُنْذُ وَطِئْتُ[1] قَدَمايَ تِلْكَ ٱلجَزِيرَةَ النَّائِيَةَ ٱلقَفْرَ[2] — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْمُتَمِّمِ لِلثَّلاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » . وكانَ ٱلْوَقْتُ خَرِيفاً ، وحَرارَةُ الشَّمْسِ مُحْتَمَلَةً .



وكانتِ الْجَزِيرَةُ الَّتِي حَلَلْتُها واقِعَةً عَلَى الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ شَمالِ خَطِّ الاِسْتِواءِ تَقْرِيباً .

وما مَرَّ عَلَيَّ عَشَرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَنْسَى تَوارِيخَ الأَيَّامِ .

(١) داست . (٢) الخالية .

ولَمْ يَكُنْ عِنْدِى كُرَّاسَةٌ ولا وَرَقٌ ولا مِدادٌ ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُدَوِّنُ لِلْأَيَّامِ تارِيخَها . وبَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ جِذْعاً مُرَبَّعاً مِنَ الْخَشَبِ ، وحَفَرْتُ فيهِ ما يأتِى :

« حَلَلْتُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ فى ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبِرَ سنة ١٦٥٨ م . »

ثُمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِى أَنْ أَحْفِرَ خَطًّا صَغِيرًا فِى كُلِّ يَوْمٍ . فَإِذا انْتَهَى الْأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجاً . فَإِذا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرَبَّعاً صَغِيرًا . وقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهٰذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعَرُّفِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ والشَّهْرِ والسَّنَةِ ، وأَمِنْتُ الْخَطَأَ والنِّسْيانَ .

٣ — الْأَصْدِقاءُ الْأَوْفِياءُ

فاتَنِي أَنْ أَذْكُرَ لِلْقارِئِ أَنَّ السَّفِينَةَ — الَّتِي غَرِقَتْ — كانَ بِها قِطَّانِ وكَلْبٌ . وقَدْ كَتَبَ عَلَيْها الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُها مُمْتَزِجَةً بِقِصَّتِي . فَقَدْ أَحْضَرْتُ الْقِطَّيْنِ مَعِى ، وقَفَزَ الْكَلْبُ مِنَ السَّفِينَةِ إِلى الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلى الشَّاطِئِ سِباحَةً ، ولَحِقَ بى فِى الْيَوْمِ التَّالِي .

وقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ يَخْدُمُنِى عِدَّةَ سَنَواتٍ .

وكان دَقيقَ الْمُلاحَظَةِ ، حادَّ الذَّكاءِ ، أشْبَهَ بِالْخادِمِ الذَّكِيِّ الْحاذِقِ[١] وكانَ — في الْحَقِيقَةِ — خَيْرَ صَديقٍ وخادِمٍ لِي . وقَدْ أُعْجِبْتُ بذَكائِهِ وفِطْنَتِهِ ودِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ :

فِي كُلِّ شَيْءٍ يُشْبِهُ الْـ إِنْسانَ إِلَّا فِي الْكَلامْ

٤ — أثاثُ الْبَيْتِ

ذَكَرْتُ لِلْقارِئِ أَنَّنِي نَقَلْتُ ذَخائِرِي وَزادِي إِلى بَيْتِيَ الْجَديدِ . وَقَدْ وضَعْتُها — أوَّلَ الْأَمْرِ — عَلَى غَيْرِ تَرْتيبٍ ؛ فَشَغَلَتْ مِنْ بَيْتِي فَراغًا كَبِيرًا ، حَتَّى صَعُبَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ فيه مُتَّسَعًا لِلْحَرَكَةِ . فَعَمَدْتُ إِلى حَفْرِ الْمَغارَةِ لِتَوْسِيعِها . وقَدْ والَيْتُ الْعَمَلَ — فِي ذٰلِكَ — أيامًا حَتَّى وُفِّقْتُ إِلى غايَتِي . ثُمَّ عَنَّ[٢] لِي أَنْ أَصْنَعَ أَهَمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أثاثِ الدَّارِ ؛ فَبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِيٍّ ومائِدَةٍ . وقدْ أَكْسَبَنِي الْعَمَلُ الْمُتَواصِلُ مَرانَةً نادِرَةً سَهَّلَتْ عَلَيَّ صُنْعَ كُلِّ ما يُعْوِزُنِي مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .

وقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْنَعَ كَثِيرًا مِنَ الْأَثاثِ ، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ

(١) الماهر . (٢) خطر .

عَلَى ذٰلِكَ بِغَيْرِ قَدُومٍ وَمِسْحَجٍ[١] . فإذا عَنَّ لِى أنْ أصْنَعَ لَوْحاً ، قطعْتُ الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ ، وطَرَحْتُ جِذْعَها عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ هَذَّبْتُهُ مِنْ جانِبَيْهِ حتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إلى الْحَدِّ الَّذِى أُرِيدُ . فإذا تَمَّ لِى ذٰلِكَ صَقَلْتُهُ[٢] بِمِسْحَجِى .

وكانَ ٱلْقَدُومُ والْمِسْحاجُ خَيْرَ مِعْوانٍ[٣] لِى عَلَى إنْجازِ كَثِيرٍ مِنْ أثاثِ ٱلْبَيْتِ . ولَمْ يَكُنْ فِى وُسْعِى أنْ أصْنَعَ أكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ واحِدٍ مِنْ كلِّ شَجَرَةٍ كامِلَةٍ . عَلَى أنَّنِى لَجَأْتُ إلَى الصَّبْرِ ، ولَمْ يَكُنْ لِى مَنْدُوحَةٌ[٤] عَنْهُ . وقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْسِيٍّ وَمائِدَةٍ ، ثُمَّ صَنَعْتُ أَلْواحاً كَثِيرَةً ، ثُمَّ ثَبَّتُّ فِى الصَّخْرِ مَسامِيرَ لَوْلَبِيَّةً[٥] ، لِأُعَلِّقَ عَلَيْها بَنادِقِى وَثِيابِى . وبَذَلْتُ جُهْدِى فى إنْجازِ كلِّ ما أَحْتاجُ إلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .

٥ — شَحْمُ الجِداء

وكانَ يُعْوِزُنِى — وَما أَكْثَرَ ما كانَ يُعْوِزُنِى حِينَئِذٍ — الشَّمَعُ . وكانَ فِقْدانُهُ يَضْطَرُّنِى إلَى مُلازَمَةِ فِراشِى كلَّما أقْبَلَ ٱللَّيْلُ .

---

(١) آلة يصقل بها الخشب . (٢) أنعمته (٣) مساعد .
(٤) بد وسعة . (٥) ملواة .

وقدْ فكّرْتُ في ذٰلِكَ طويلًا حتّى اهتديْتُ إلى حلٍّ هٰذهِ الْمُشْكلَةِ ؛ فحرَصْتُ على شحْمِ الْجِداءِ الّتي كنْتُ أذبحُها ، ثمّ جفّفْتُهُ في أشِعّةِ الشّمْسِ . ووضعْتُ في وسَطِ كُلِّ قِطْعةٍ مِنَ الشّحْمِ فتيلًا أخرجْتُهُ مِنَ الْحِبالِ الّتي عِنْدي ؛ حتّى إذا تمّ صُنْعُ الشّمَعِ ظفِرْتُ بِالضّوْءِ ليْلًا ، بعْدَ أنْ كُنْتُ أقْضي لَيالِيَّ في ظَلامٍ حالِكٍ .

٦ — سَنابِلُ الشّعيرِ

وَفي ذاتِ يوْمٍ كُنْتُ دائِبًا[1] على الْعمَلِ ؛ فاسْترْعى انْتِباهي كِيسُ الْحُبُوبِ الّذي أحْضرْتُهُ معي مِنَ السّفينةِ الْمُحطّمةِ ، فرأيْتُ الْفأْرةَ قدِ الْتهمَتْهُ حتّى لمْ تكدْ تبْقى منهُ إلّا الْقُشُورَ . فأفْرغْتُ الْكيسَ مِنها عِنْدَ سفْحِ الصّخْرةِ الْقريبةِ مِنْ كهْفي ، لِأنْتفِعَ بِالْكيسِ في قضاءِ مآرِبَ[2] أُخَرَ . وبعْدَ قليلٍ ، هطلَتِ الْأمْطارُ ، وروّتِ الْأرْضَ ، ثمّ نسيتُ كُلَّ ما حدَثَ بعْدَ ذٰلِكَ .

وما مرّ عليّ شهْرٌ واحدٌ تقْريبًا حتّى أدْهشَني ما رأيْتُهُ — عِنْدَ سفْحِ الصّخْرةِ — مِنَ السّوقِ النّاميةِ في الْأرْضِ .

---

(١) مجتهداً . (٢) إنجاز حاجات .



وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُها – أوّلَ الْأَمْرِ – نباتاتٍ مَجْهولَةً . ثمَّ ظَهَرَ لى خَطأُ هٰذا الظَّنِّ – بَعْدَ زَمَنٍ قليلٍ – حينَ رَأيتُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعِيرِ الْأَخْضَرِ .

وَقَدِ اشْتَدَّتْ دَهْشَتِي – حينَئِذٍ – ولَمْ أُقَصِّرْ فى تَعَهُّدِها بِالْعِنايَةِ ، وحَصْدِها فى مَوْسِمِ الْحَصادِ ، وهُوَ آخِرُ شَهْرِ « يُنْيَــةَ » .

وقَدْ جَنَيْتُها بِعِنايَةٍ نادِرَةٍ ؛ فَلَمْ أُهْمِلْ مِنْها حَبَّةً واحِدَةً ، ثمَّ بَذَرْتُها – بَعْدَ ذٰلِكَ – فى مَوْسِمِ الْبَذْرِ . وَلاحَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فى الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ بَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ .

وَما مَرَّتْ عَلَىَّ أَرْبَعُ سَنَواتٍ حَتَّى أَصْبَحَ عِنْدِي – مِنَ الشَّعِيرِ – ما يَكْفِي لِغِذَائِي وزَرْعِ حَقْلِيَ الْجَدِيدِ .

٧ — زِلْزالُ الْجَزِيرَةِ

وَما أنْسَ لا أنْسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ « أبْرِيلَ » عامَ سِتِّينَ وسِتِّمِائَةٍ وَألْفٍ : فَقَدْ كانَ يَوْمًا هائِلَ النَّبَإِ ، مُرَوِّعَ الْخَبَرِ ، وقَدْ أيْقَنْتُ فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ أنَّ آخِرَتِي دَنَتْ ، وأنَّ مَصْرَعِي وَشِيكٌ[1] . ورَأيتُ كلَّ ما أتْمَمْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ — يَكادُ يَنْهارُ[2] أمامِي فِي لَحْظَةٍ واحدةٍ .

كُنْتُ فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ مُنْهَمِكًا[3] فى أعمالى ، داخِلَ خَيْمَتِي . وإنِّى لَكَذٰلِكَ إذْ وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَهْبِطُ وتَصْعَدُ . وشَعَرْتُ باضْطِرابِ الصُّخُورِ الَّتى تَكْتَنِفُنِي[4] ، وسَمِعْتُ فَرْقَعَةً وجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ ، ولَمْ أعْرِفْ مَصْدَرَ هٰذِهِ الْكَوارِثِ . وتَمَلَّكَنِيَ الذُّعْرُ ، وخَشِيتُ أنْ أُدْفَنَ حَيًّا ؛ فَصَعِدْتُ السُّلَّمَ ، وخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِي مُسْرِعًا ، وَأنا لا أَكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ ؛ فَرَأيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا ، فعَرَفْتُ أنَّهُ الزِّلْزالُ .

---

(١) هلاكي مسرع إلى .   (٢) يسقط .   (٣) جاداً .   (٤) يحيط بى .

وقَدِ اهْتَزَّتِ الأرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُتَعاقِبَةً[١] ، وكانَ بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْها ثَمانِى دَقائِقَ .

وكانَتْ تِلْكَ الْهِزَّاتُ قَوِيَّةً عَنيفَةً إلى حَدِّ أنْ هَوَتْ إحْدَى الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّى ، ولَمْ أكُنْ أَبْعُدُ عَنْها أكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ونِصْفِ مِتْرٍ ، وسَمِعْتُ لِسُقُوطِها صَوْتًا هُوَ أشْبَهُ شَيْءٍ بالرَّعْدِ . وثَمَّةَ[٢] عَقَدَ الْخَوْفُ لِسانِى ، وكادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فى عُرُوقِى ، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ .

وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّى أَنَّ الأَرْضَ هدَأَتْ ، وسَكَنَ اضْطِرابُها بَعْدَ تِلْكَ الْهِزَّاتِ الثَّلاثِ . فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِى قَليلًا ، ولٰكِنَّنى لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتى ؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الأَرْضِ ، وأَنا لا أعْرِفُ كَيْفَ أصْنَعُ .

٨ — بَعْدَ الزِّلْزالِ

واكْفَهَرَّتِ السَّماءُ[٣] ، وتَلَبَّدَتْ فَجْأَةً بِالْغُيُومِ الْقاتِمَةِ . وهَبَّتِ الرِّيحُ عاصِفَةً هَوْجاءَ ؛ واضْطَرَبَ الْبَحْرُ ، واصْطَفَقَتْ أَمْواجُهُ اصْطِفاقًا

---

(١) متوالية . (٢) هنالك (٣) اسودت .

شَدِيدًا ، وكانَتْ تَصِلُ فى ٱرْتِفاعِها إلى مِثْلِ ٱرْتِفاعِ ٱلْجِبالِ . وَظَلَّتِ الْعاصِفَةُ ثائِرَةً مُفَزِّعَةً ثَلاثَ ساعاتٍ ، ثُمَّ أَعْقَبَها السُّكُونُ ، وَهَطَلَتِ الْأَمْطارُ الْغزِيرَةُ ؛ فَحَسِبْتُها سُيُولًا تَهْمِى مِنَ السُّحُبِ الْمُتَكاثِفَةِ . وَظَلَّتِ السَّماءُ تُمْطِرُنا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهارِ الْيَوْمِ التَّالى . وَكانَ شُغْلِىَ الشّاغِلُ — حِينَئِذٍ — التَّفْكِيرَ فى تَغْيِيرِ هٰذا الْمَنْزِلِ ، بَعْدَ حُدُوثِ الزِّلْزالِ . فَلَمْ يَكُنْ فِى وُسْعِى أَنْ أَطْمَئِنَّ إلى الْبَقاءِ ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ أُدْفَنُ فِيهِ حَيًّا . وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « مادامَتِ الْجَزِيرَةُ عُرْضَةً لِأَخْطارِ الزِّلْزالِ ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ[1] أَنْ أَتَّخِذَ هٰذِهِ الْمَغارَةَ مَسْكَنًا لى ، وَما أَجْدَرَنِى أَنْ أَتَخَيَّرَ مَكانًا صالِحًا فِى الْعَراءِ[2] ، لِأَبْنِىَ فِيهِ مَسْكَنِى ، بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِياجٍ أَمِينٍ[3] . »

وقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُغادَرَةِ هٰذا الْكَهْفِ الَّذِى لَمْ آلُ جُهْدًا[4] فِى حَفْرِهِ وَإِصْلاحِهِ وَتَنْظِيمِ أَمْتِعَتِى فِيهِ ، حتَّى أَصْبَحَ بَيْتًا وَحِصْنًا مَنِيعًا[5] يَقِينِى غاراتِ الْأَعْداءِ .

---

(١) الحكمة . (٢) الفضاء . (٣) سور متين . (٤) لم أبق قوة إلا بذلتها
(٥) قوياً .

٩ — أَثَرُ الزِّلْزالِ

وَفِي صَباحِ أَوَّلِ « مايُو » وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ، وَأُجِيلُ لِحاظِيَ فِي أَرْجائِهِ[١]. فَرَأَيْتُ بَقايا مُتَناثِرَةً مِنْ حُطامِ السَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْواحِها، قَذَفَها الْمَدُّ إِلى الشَّاطِئِ. فَصَبَرْتُ عَلَيْها حَتَّى يَنْحَسِرَ[٢] عَنْها الْماءُ، وَقْتَ الْجَزْرِ[٣]. وَقَدْ دَهِشْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ. وَعَلِمْتُ أَنَّ هٰذا مِنْ أَثَرِ الزِّلْزالِ الَّذِي حَطَّمَ السَّفِينَةَ تَحْطِيمًا، ثُمَّ قَذَفَتِ الْأَمْواجُ بِأَلْواحِها إِلى الشَّاطِئِ. وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهازِ هٰذِهِ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي بِبِناءِ الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ. وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ ما بَقِيَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلى قِطَعٍ، وَأَنا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حاجَتِي إِلى هٰذِهِ الْبَقايا الْمُحَطَّمَةِ. وَقَدْ واصَلْتُ الْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هٰذا الْعَزْمِ حَتَّى مُنْتَصَفِ شَهْرِ « يُنْيَةَ »، وَظَفِرْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْواحِ، كَما ظَفِرْتُ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ رِطْلٍ مِنَ الْحَدِيدِ. وَهٰكَذا أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَبْنِيَ لِي زَوْرَقًا كامِلَ الْمُعِدَّاتِ. وَصَنَعْتُ — بَعْدَ ذٰلِكَ — شَبَكَةً أَصْطادُ بِها السَّمَكَ. وَكُنْتُ أُجَفِّفُ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي مِنْهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرارَتِها، ثُمَّ آكُلُهُ فِي أَوْقاتٍ أُخْرَى.

---

(١) أدير بصرى فى أنحائه. (٢) يرتد. (٣) ارتداد الماء.

١٠ — بَيْنَ بَراثِنِ الْحُمَّى

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » رَأَيْتُ سُلَحْفاةً كَبيرَةً تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ ، وكانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ سُلَحْفاةٍ أَراها فى الْجَزِيرَةِ، عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ — فِي الأَيَّامِ التَّالِيَةِ — أَسْرابًا[١] كَثِيرَةً مِنَ السَّلاحِفِ فى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى مِنْها .

وَذَبَحْتُ تِلْكَ السُّلَحْفاةَ ؛ فَرَأَيْتُ فِيها سِتِّينَ بَيْضَةً . وكانَ لَحْمُها — حِينَئِذٍ — شَهِيًّا لَذِيذًا ؛ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعامٍ تَذَوَّقْتُهُ فى حَياتِي .

وفِي الْيَوْمِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » هَطَلَتِ الأَمْطارُ غَزِيرَةً ، وبَرَدَ الْجَوُّ فَجْأَةً ، فَأَصابَتْنِي الْحُمَّى عَشَرَةَ أَيَّامٍ كامِلَةٍ . وكانت حَرارَتِي تَخْتَلِفُ بَيْنَ ارْتِفاعٍ وانْخِفاضٍ ، وقَدِ اشْتَدَّ بِيَ الظَّمَأُ ، وأَعْجَزَنِيَ الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إلى مَكانِ الْماءِ لِأُرْوِيَ ظَمَئِي .

وما تَماثَلْتُ[٢] ، حتَّى انْصَرَفَ هَمِّي إلى مَلْءِ زُجاجَةٍ كَبِيرَةٍ ماءً ، ووَضَعْتُها عَلَى الْمائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سرِيرِي .

---

(١) جماعات . (٢) دنوت من الشفاء .

ولَقَدْ نَهِكَتِ الْحُمَّى قُوَاىَ[١] ؛ فَبَقِيتُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى وأنا عاجِزٌ عَنْ أداءِ أىِّ عَمَلٍ . فَقَضَيْتُ دَوْرَ النَّقَهِ[٢] فِى رَاحَةٍ تامَّةٍ ، تَتَخَلَّلُها نُزُهاتٌ قَصِيرَةٌ ، حتَّى اسْتَرْدَدْتُ صِحَّتِى كامِلَةً فى الْيَوْمِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ « يُلْيَةَ » .

١١ — ارْتِيادُ الْجَزِيرَةِ

ورَأَيْتُنِى جَدِيرًا أَنْ أَرْتادَ الْجَزِيرَةَ ، وأَتَعَرَّفَ كلَّ ما فِيها . فَذَهَبْتُ إلى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ — وهُوَ أَوَّلُ مَكانٍ حَلَلْتُهُ فى هٰذهِ الْجَزِيرَةِ — وسِرْتُ عَلَى شَاطِئِ الْغَدِيرِ الّذِى يَصُبُّ فيهِ ، وقَطَعْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ فى أرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ . وقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْمُرُوجِ الْخُضْرِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْبَسِطَةِ الَّتى يَخْتَرِقُها الْغَدِيرُ . ورَأَيْتُ فى الْمُرُوجِ الْمُرْتَفِعَةِ كثيرًا مِنَ التَّبْغِ الأَخْضَرِ نامِيًا عَلَى سُوقٍ مُرْتَفِعَةٍ ، كما رَأَيتُ عِيدانَ قَصَبِ السُّكَّرِ عَلَى غَيْرِ ما يُرامُ ، فقَدْ أُهمِلَتْ ولمْ يَتَعَهَّدْها أَحَدٌ بِعِنايَتِهِ . وفى الْيَوْمِ التَّالِى — أىْ فى السَّادِسَ عشَرَ مِن ذٰلكَ الشَّهْرِ —

(١) أضعفتها . (٢) مدة استكمال الصحة .

سِرتُ في الطَّريقِ الَّتي قطعتُها بالأمسِ ، وتوغّلتُ[1] في المُرُوجِ . فرأيتُ وَراءها كثيرًا مِن أشجارِ الفاكِهَةِ وغيرِها ، ورأيتُ — مِنَ الشَّمَّامِ والعِنَبِ النَّاضِجِ الشَّهِيِّ — ما أدهشني وأفعمَ قلبي سُرُورًا . فأكلتُ مِن الفاكِهَةِ في غيرِ إسرافٍ حتَّى لا تُسلِمَنِيَ التُّخَمَةُ إلى المَرَضِ . ثُمَّ عَنَّ لي أَنْ أُجَفِّفَ العِنَبَ حتى يُصبِحَ زَبيبًا . ومَضى النَّهارُ كلُّهُ وأنا جادٌّ في هٰـذا العَمَلِ . ولَمْ أشأْ أنْ أعُودَ إلى مَسكَني قَبْلَ أنْ يُقبِلَ اللَّيلُ لِبُعدِ الشُّقَّةِ[2] فتخيَّرتُ لِنَوْمي شَجَرَةً كثيفَةَ الأغصانِ ، ونِمتُ بَيْنَ أغصانِها ، كما نِمتُ أوَّلَ ليلةٍ حَلَلْتُ فِيها هٰذه الجَزيرَةَ . وما زِلتُ نائِمًا قَريرَ العَيْنِ[3] هادِئَ البالِ حتَّى أقبلَ الصَّباحُ . فاستيقظتُ، ثُمَّ واصلتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أميالٍ ، حتَّى بلغتُ غابةً مُزدَهِرَةً ، تَلُوحُ لِعَيْنِ مَن يَراها مِنْ بَعيدٍ كأنَّها حَديقَةٌ .

وقدِ استرعى بَصَرِي ما رأيتُهُ مِنْ شَجَرِ البُرتُقالِ واللَّيمُونِ وما إلى ذٰلكَ مِنَ الفاكِهَةِ النَّاضِجَةِ الشَّهِيَّةِ .

ورأيتُ مِنْ أصالَةِ الرَّأيِ[4] أنْ أُعِدَّ مِنْ هٰـذهِ الخَيْراتِ العَميمَةِ

---

(١) قطعت مسافة بعيدة . (٢) بعد المسافة . (٣) مسروراً (٤) جودته

زادًا أختزنُهُ لِفصلِ الشِّتاءِ القَريبِ . فَجَنَيْتُ كثيرًا مِنَ العِنبِ ، وعَلَّقْتُهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ ، لِيَجِفَّ فى الشَّمْسِ. وَأَخذْتُ مِنَ البُرْتُقالِ بِمِقْدارِ ما أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ . وَسِرْتُ فى طَرِيقِى عائِدًا إلى مَسْكَنى ، وَأنا شَديدُ الإعْجابِ بِجَمالِ هٰذا الوادِى الخَصِيبِ ، وَاعْتدالِ جَوِّهِ ، وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ الأَمِينِ . وعَرَفْتُ أَنَّ المَكانَ — الَّذِى تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْنايَ — هُوَ أَرْدَأُ بُقعَةٍ فى تلكَ الجَزِيرَةِ . وَلٰكِنَّنِى لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبْرَحَ المَكانَ ، لِقُرْبِهِ مِنَ البَحْرِ . وَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِي سَفِينَةٌ ، أَوْ يَفِدَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنْقِذَنِى مِنْ تِلْكَ العُزْلَةِ .

عَلَى أَنَّنى — لِشِدَّةِ إعْجابِى بِهذِهِ البُقْعَةِ الجَمِيلَةِ — لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْها . فَأَنْشَأْتُ فِيها عُشًّا آوِى إِلَيْهِ وَسَطَ فِناءٍ[1] مُحاطٍ بِسِياجٍ[2] طَبِيعِيٍّ مُزْدَوِجٍ مِنَ الأَشْجارِ . وَكُنْتُ أُمْضِى فى هٰذا الحِصْنِ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا مُتَوالِيَةً . وَقَدْ صَنَعْتُ سُلَّمًا شَبِيهًا بِالسُّلَّمِ الَّذِى صَنَعْتُهُ فى المَنْزِلِ الأَوَّلِ . وَهٰكَذا أَصْبَحَ لِى مَنْزِلانِ مُتَباعِدانِ ، آوِى إِلَيْهِما فى أَىِّ وَقْتٍ أَشاءُ . وظَلِلْتُ كَذٰلِكَ إِلى أَوَّلِ شَهرِ « أُغُسْطُسَ » .

---

(١) مكان فضاء واسع . (٢) سور .



١٢ – فَصْلُ الأَمْطارِ

وَفِي اليَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ « أُغُسْطُسَ » بَدَأَ المَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ إلى أن حَلَّ مُنْتَصَفُ « أُكْتُوبَرَ » ، فَبَدَأَتْ تَخِفُّ وَطْأَةُ المَطَرِ .

وكُنْتُ — لِحُسْنِ حَظِّى — قَدْ نَقلْتُ إلى مَسْكَنِى الْأَوّلِ كلَّ ما جَفَّفْتُهُ مِنَ الْعِنَبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فصْلِ الْأمْطارِ . فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهِمارُ الْمطرِ وَتَعَذَّرَ عَلَىَّ الْخُرُوجُ ، وَجَدْتُ ما يَكْفِينِى مِنَ الزَّادِ . وكانَ الْمَطَرُ يَضْطَرُّنِى فى بَعْضِ الْأَحْيانِ ، إلَى الِانْزِواءِ فى مَغارَتِى عِدَّةَ أَيَّامٍ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زادِى يُوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ ؛ فاضْطُرِرْتُ إلى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتِى مَرَّتَيْنِ . وَقَدِ اصْطَدْتُ جَدْيًا وَسُلَحْفاةً كَبِيرَةً ، وكانَ لَحْمُهُما شَهِيًّا .

وكانَ فَطُورِى عُنْقُودًا مِنَ الْعِنَبِ ، وَغَدائِى شِواءَةً مِنْ جَدْيٍ أَوْ سُلَحْفاةٍ ، وَعَشائِى بَيْضَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » ، انْتابَتْنِى ذِكْرَياتٌ مُؤْلِمَةٌ . وقَدْ ساوَرَتْنِى(١) حينَ مَرَّ بِخاطِرِى أَنَّنِى حَلَلْتُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ فِى مِثْلِ هٰذا الْيَوْمِ مِنَ الْعامِ الْماضِى ، وقَدْ مَرَّ عَلَىَّ عامٌ بِأَكْمَلِهِ فِى هٰذا الْمَنْفَى . ولَقَدْ كُنْتُ شَديدَ الْيَقَظَةِ فى مُراقَبَةِ الْفُصُولِ وحُسْبانِ أَيّامِ السَّنَةِ ؛ حتَّى لا أُفاجَأَ بِالْأَمْطارِ . وقدْ أَكْسَبَتْنِى الْمَرانَةُ خِبْرَةً نادِرَةً بِالزِّراعَةِ ، ونَجَحَتْ أَعْمالى نَجاحًا باهِرًا .

(١) خطرت لى .

١٣ — الْبَبَّغاء والْجَدْىُ

وكُنْتُ دائِباً عَلَى الْعَمَلِ فِى كُلِّ يَوْمٍ . ولَمْ أُقَصِّرْ فِى تَوفِيرِ الزَّادِ[1] عِنْدِى قَبْلَ حُلُولِ الأَمْطارِ ؛ حَتَّى لا يُزْعِجَنِى نَقْصُ الزَّادِ إذا حَبَسَنِى الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ .

ورَأَيْتُنِى فِى حاجَةٍ إِلَى سِلالٍ أَضَعُ فِيها الْفاكِهَةَ والطَّعامَ . وقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى صُنْعِها بَعْدَ عَناءٍ طَوِيلٍ . وكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّجْوالِ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِى — ذاتَ يَوْمٍ — أَرْضٌ فَسِيحَةٌ ، وكانَ الْيَوْمُ صَحْوًا . وقَدْ رَأَيْتُها مُرْتَفِعَةً ، تَمْتَدُّ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْجَنُوبِ الْغَرْبِىِّ . وهِىَ تَبْعُدُ عَنْ جَزِيرَتِى نَحْوَ خَمْسَةَ عَشَرَ مِيلا ، ولَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْها . وقَدْ هَدانِىَ التَّفْكِيرُ الطَّوِيلُ إِلَى أَنَّ هٰذِهِ الأَرْضَ الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إِلَى بِلادِ الْبَرازِيلِ . وشَهِدْتُ — فِى أَثْناءِ تَجْوالِى فِى تِلْكَ السُّهُولِ الْخُضْرِ الْمُزْدَهِرَةِ الْجَمِيلَةِ ، ذاتِ الأَشْجارِ الْباسِقَةِ[2] الْكَثِيفَةِ[3] — جَمْهَرَةً مِنَ الْبَبَّغاواتِ .

وقَدْ وُفِّقْتُ إِلى اقْتِناصِ بَبَّغاء صَغِيرَةٍ ، ضَرَبْتُها بِعَصاىَ ، ثُمَّ

---

(١) جمعه . (٢) المرتفعة . (٣) الغليظة .

أَدْفَأْتُها بَيْنَ ثِيابى ، حَتَّى عادَتْ إلى صَوابِها . وعُدْتُ بِها إلى مَسْكَنى ، فَرَأَيْتُ كَلْبِي قدِ اصْطادَ جَدْيًا صَغِيرًا ؛ فَأَسْرَعْتُ لإنقاذِ الْجَدْىِ مِنْ بَيْنِ مَخالِبِهِ .



وقدْ عُنِيتُ بتَرْبِيَةِ الْبَبَّغاء والْجَدْيِ وتَأْنِيسِهِما[1] . فَرَبَطْتُ الْجَدْىَ إلى وَتِدٍ ، وصَنَعْتُ لِلْبَبَّغاءِ قَفَصًا . ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِما زَمَنٌ قَليلٌ ، حتَّى أَنِسَا بِي وأَرْتاحا إلى صُحْبَتِي . وكانَ الْجَدْىُ يَتْبَعُنِي حَيْثُما سِرْتُ ، ولا يَكادُ يُطِيقُ فِراقِي .

وهٰكَذا سَعِدْتُ — فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — بِصُحْبَةِ هٰذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ ، كما سَعِدْتُ بِصُحْبَةِ كَلْبِي وقِطَّتِي مِنْ قَبْلُ .

---

(١) جعلهما يأنسان بي ولا يهربان مني .

الفصل السادس

زَمَنُ الْعُزلة

١ — أعْداءُ الزِّراعَةِ

حَلَّ الْيومُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِين مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » ، وهُوَ الذِّكْرى الثَّانِيَةُ لِلْيَوْمِ الْمَشْئُومِ الَّذِى حَلَلْتُ فيهِ هٰذهِ الْجَزِيرَةَ الْمُوحِشَةَ النَّائِيَةَ ، حَيْثُ كُتِبَ عَلَيَّ أنْ أتْرُكَ الْعالَمَ وَأسْتَسْلِمَ لِلْعُزْلَةِ . عَلَى أنَّنِي وجَدْتُ فى الْعَمَلِ راحَةً عَظِيمَةً ، وظَفِرْتُ — بِجِدِّى ودُءُوبِى ومُثابَرَتِى[1] — بِنَتائِجَ باهِرَةٍ . فَجَنَيْتُ فى آخِرِ الْخَرِيفِ مَحْصُولًا وافِرًا مِنَ الْحُبوبِ . وَلٰكِنَّ فَرَحِي بِهِ لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ نَغَّصَهُ عَلَيَّ عَبَثُ الْجِداء بِهِ . وكُنْتُ أرَى بَعْضَ حَيَوانِ الْجَزِيرَةِ — وهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرْنَبِ الْجَبَلِيِّ يَعِيثُ بِزَرْعِي فَسادًا . وقَدِ اسْتَمْرَأَ[2] الْقَمْحَ — وَهُوَ عَلَى سُوقِهِ — وأغْرَتْهُ لَذَّتُهُ بِإِفْسادِ ما زَرَعْتُهُ مِنْهُ . فَلَمْ أرَ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِياجٍ مِنَ

---

(١) صبرى ومواظبتى . (٢) استطاب .

الأَعْشابِ المُرْتَفِعةِ . وقَدْ جَهَدَنِي ذٰلكَ ثلاثَةَ أسابِيعَ . ولَمْ آلُ جُهْدًا فى مُطارَدَةِ هٰذِهِ الأَعْداء الْخَبِيثَةِ نَهارًا ، فَإِذا جاء اللَّيلُ رَبَطْتُ الْكَلْبَ إلى حَبْلٍ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ فى بابِ الْحَقْلِ ، فَلا يَفْتَأُ يَنْبَحُ طُولَ اللَّيْلِ حتَّى يُزْعِجَها ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَجَرَتِ الْبُقْعَةَ الَّتى كُنْتُ فِيها ، ولَمْ تَعُدْ تَدْنُو مِنْها بَعْدَ ذٰلكَ . واسْتَرَحْتُ مِنْ عَبَثِ هٰذِهِ الأَعْداء(١) ، حتَّى حانَ وَقْتُ الْحَصادِ . فَظَهَرَ لى أَعْداءٌ جُدُدٌ ؛ إِذْ أَقْبَلَتِ الطُّيُورُ على سَنابِلِ الشَّعِيرِ تَلْتَهِمُها ، واُسْتَمْرَأَتْ هٰذا الطَّعامَ الشَّهِيَّ . على أَنَّنِي لَمْ أَيْئَسْ مِنَ النَّجاحِ فى مُطارَدَتِها ، فَظَلِلْتُ أَحْرُسُ حَقْلِي لَيْلَ نَهارَ ، وَأَصْطادُ بِبُنْدُقِيَّتِى كُلَّ طائِرٍ يَدْنُو مِنْ حَقْلِي ؛ حتَّى ذُعِرَتِ الطُّيُورُ وَتَمَلَّكَها الرُّعْبُ ، فهَجَرَتِ الْحَقْلَ وَما يَكْتَنِفُهُ(٢) ، ولَمْ تَجْرُؤْ على الدُّنُوِّ مِنْ هٰذِهِ الْبُقْعَةِ . وَهٰكَذا تَمَّ لِيَ الظَّفَرُ ، وَارْتاحَ بالِي ، وَنَضِجَ الزَّرْعُ فى الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ مِنْ « دِيسَمْبِرَ »

٢ — أَدواتُ الزَّارِعِ

وقَدِ اشْتَدَّتْ حَيْرَتى وارْتِباكِى حِينَ هَمَمْتُ بِجَنْيِ هٰذا الْمَحْصُولِ

(١) ما فعلته من الأذية . (٢) ما يحيط به .

وَلَيسَ عِنْدِى مِنَ ٱلْأَدواتِ ما يُساعِدُنِى عَلَى ذٰلكَ . وعَنَّ لِي أنْ أَصْنَعَ مِنْجَلًا ، وَهُوَ آلَةٌ مِن ٱلْحَديدِ مُنْحَنِيَةٌ يُقطَعُ بِها الزَّرْعُ .

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَغُصْنِ شَجَرَةٍ . وَقَطَعْتُ السَّنابِلَ ، ثُمَّ فَرَكْتُها بِيَدَىَّ ، وعَزَمْتُ عَلَى بَذْرِها جَمِيعاً فى ٱلْمَوْسِمِ ٱلْقابِلِ . وَهُنا تَمَثَّلَ لِي مِقْدارُ ما يُعانِيهِ ٱلْإنْسانُ إذا حاوَلَ — بِمُفْرَدِه — أنْ يَظْفَرَ بِرَغِيفٍ واحِدٍ مِنَ ٱلْخُبْزِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ فى حاجَةٍ إلى مِحْراثٍ وَفَأْسٍ وَما إلى ذٰلِكَ مِنْ أدواتِ الزِّراعةِ . فَإذا تَمَّ ٱلْحَصادُ ٱشْتَدَّتْ حاجَتِى إلَى طاحُونَةٍ وَمُنْخُلٍ وَفُرْنٍ



وَما إلى ذٰلِك مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ . وَلٰكِنَّ الْجِدَّ والْمُثابَرَةَ كَفِيلانِ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى كلِّ عَقَبَةٍ . وَقَدْ تَمَّ لِي كلُّ ما أَرَدْتُ بِفَضْلِ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْعَمَلِ ،

لِأَنَّنِي كُنْتُ لا أُضيعُ وَقْتِي عَبَثًا . فَإِذا هَطَلَتِ الْأَمْطارُ لَزِمْتُ بَيْتِي ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى بَبَّغائِي أُعَلِّمُها النُّطْقَ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى نَتائِجَ باهِرَةٍ .

٣ — صِناعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كانَتِ الْحاجَةُ تَفْتُقُ الْحِيلَةَ[١] ، اضْطُرِرْتُ إِلَى مُزاوَلَةِ صِناعَةِ الْفَخَّارِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِها عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ نَجَحْتُ فِي ذٰلِكَ — بَعْدَ مُرانَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَتَجارِبَ كَثِيرَةٍ — فَصَنَعْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجِرارِ[٢] وَالْأَوانِي وَالْقِصاعِ[٣] وَالصِّحافِ[٤] . وَما زِلْتُ أَرْتَقِي فِي هٰذِهِ الصِّناعَةِ حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا جَدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ .

٤ — الزَّوْرَقُ الْكَبِيرُ

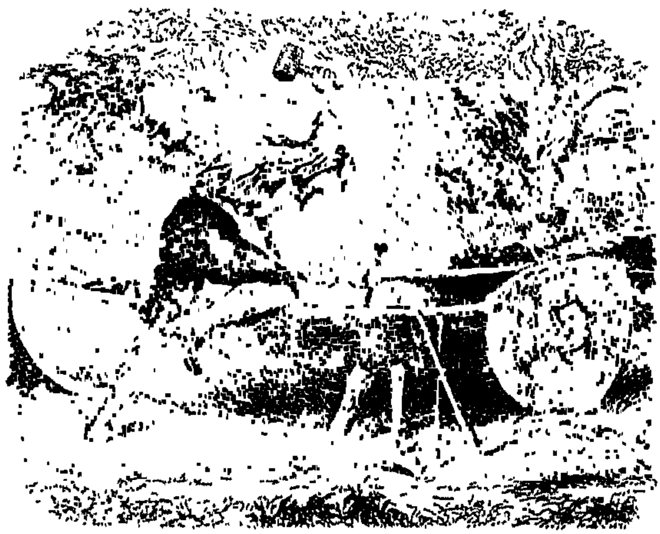
عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الْأَعْمالَ الْكَثِيرَةَ الْمُرْهِقَةَ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِيَ الشَّدِيدَةَ فِي ارْتِيادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي رَأَيْتُها — مِنْ قَبْلُ — تُجاهَ الْجَزِيرَةِ . فَقَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَجِدَ فِيها وَسِيلَةً لِلْعَوْدَةِ إِلَى « لَنْدَنَ » .

---

(١) الضرورة تبعث على ابتكار الحيلة (٢) جمع جرة (٣) جمع قصعة

(٤) جمع صحفة . وهي الطبق .

وذَكَرْتُ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ الَّذِى انْقَلَبَ بِرِفاقِى ، فرَأَيْتُهُ لا يَزالُ كما هُوَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ مَقْلُوباً ، وقدْ غاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِى رِمالِ الشَّاطِئِ ، وحاوَلْتُ أنْ أرْفَعَهُ مِنْ مَكانِهِ ، فَذَهَبَتْ كلُّ جُهُودِى عَبَثاً .



فَأَقْبَلْتُ عَلَى جُذُوعِ الأَشْجارِ ، وبَذَلْتُ كلَّ ما فى وُسْعِى زَمَناً طَوِيلًا ، حتّى صَنَعْتُ زَوْرَقاً كَبِيراً يَسَعُ سِتَّةً وعِشْرِينَ راكِباً .

ولٰكِنَّنِى عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إلى الْبَحْرِ ، وأَعْيَتْنِيَ الْحِيَلُ فِى ذٰلِكَ ، واسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أُزَحْزِحَهُ عَنْ مَكانِهِ ، كما اسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أُزَحْزِحَ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ .

٥ — الزَّوْرَقُ الْجَدِيدُ

وانقَضَى الْعامُ الرَّابِعُ ، فانْتَظَمَتْ أُمُورِى واسْتَقامَتْ . وقدْ صَنَعْتُ — فِيما صَنَعْتُ — قَلَنْسُوَةً(١) كَبِيرَةً مِنْ فِراءِ الْجِداءِ الَّتِي تَصَيَّدتُها ، كَما صَنَعْتُ مِنْها جِلْبابِي وسِرْوالِي وبَعْضَ الثِّيابِ ، لِتَقِيَنِي غائِلَةَ الْبَرْدِ فى الشِّتاءِ . وصَنَعْتُ مِظَلَّةً لِتَقِيَنِي غائِلَةَ الْحَرِّ فى الصَّيْفِ — فَقَدْ كانتِ الجَزِيرَةُ واقِعَةً بِالْقُرْبِ مِنْ خَطِّ الاِسْتِواءِ ، وَكانَ قَيْظُها(٢) لِذلِكَ لا يُحْتَمَلُ — فَسَهَّلَتْ عَلَيَّ السَّيْرَ نَهارًا مِنْ غَيْرِ عَناءٍ ، وَآمَنَتْنِي مِنَ الْمَطَرِ



والشَّمْسِ . وَكانَ شُغْلِيَ الشَّاغِلُ أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا أَصْغَرَ مِنَ الزَّوْرَقِ الَّذِى صَنَعْتُهُ . ولَمْ يَنْتَهِ الْعامُ الْخامِسُ حتَّى أَتْمَمْتُ صُنْعَهُ . وَنَجَحْتُ

(١) غطاء رأس (٢) حرها

فِي ذٰلِكَ نَجاحاً باهِراً . فَجَعَلتُ لَهُ شِراعاً ، وَثَبَّتُّ فِيهِ مِظَلَّةً كَبِيرَةً . وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الطَّوافِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِأَتَعَرَّفَ مَدَى هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي كُتِبَ عَلَيَّ الْقَدَرُ أَنْ أَكُونَ مَلِيكَها ، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — مَدَى هٰذا السِّجْنِ الَّذِي أَبَتْ عَلَيَّ الْمَقادِيرُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ حَلِيفَهُ[١] وَسَجِينَهُ .

وَهٰكَذا أَعْدَدْتُ الطَّعامَ وَالْماءَ لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ . وَلَمْ أَنْسَ سِلاحِي لِأُدافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِي إِذا حانَ وَقْتُ الْخَطَرِ . وَأَزْمَعْتُ[٢] التَّجْوالَ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ طَوِيلٍ .

٦ — الطَّوافُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأْتُ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ « نُوفَمْبِرَ » ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَيَّ سِتَّةُ أَعْوامٍ فِي مَمْلَكَتِي ، أَوْ فِي سِجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ[٣] الصِّدْقَ فِي التَّعْبِيرِ ! وَكانَتْ هٰذِهِ السِّياحَةُ أَطْوَلَ مِمَّا قَدَّرْتُ .

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ — فِي أَثْناءِ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ — لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطارِ ، وَلٰكِنَّ تَوْفِيقَ اللهِ لازَمَنِي ، حَتَّى عُدْتُ إِلَى بَيْتِيَ الرِّيفِيِّ — ذاتَ مَساءٍ — وَقَدْ جَهَدَنِيَ[٤] التَّعَبُ ، فاسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .

---

(١) ملازمه . (٢) قررت . (٣) قصدت . (٤) أضعفني .

٧ — مُفاجأةُ الْبَبَّغاء

شَدَّ ما تَمَلَّكَنِيَ الدَّهَشُ حِينَ طَرَقَ أُذنى صَوْتٌ يُنادِينِي باسْمِي، وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وجَلاء:

« رُوبِنْسَن! إيهِ يا رُوبِنْسَن! ها أَنْتَ ذا يا رُوبِنْسَن! مِسْكِينٌ أنْتَ يا رُوبِنْسَن! أَيْنَ أَنْتَ؟ وَأَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يا روبِنْسَن كُرُوزُو؟ »



وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي حالِمٌ، وَلٰكِنَّ ٱلصَّوْتَ عادَ يَقُولُ:

«رُوبِنْسَن كُرُوزُو! إيهِ يارُوبِنْسَن!»

فاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِيَ ٱلْعمِيقِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنِيَ ٱلدَّهْشَةُ والذُّعْرُ. وَما تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى عاوَدَتْنِيَ ٱلطُّمَأْنِينَةُ، وَسُرِّيَ عَنْ نَفْسِي(١)، إذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَبَّغائِي هِيَ

(١) ذهب عنه الفزع.

مصْدَرُ هٰذا الصَّوْتِ . فَقَدْ رَأَيْتُها قائِمَةً على السِّياجِ ، فَعجِبْتُ مِنِ اْهْتِدائِها إلى هٰذا اْلْبَيْتِ ، وَقدْ تَرَكْتُها فِى اْلْكهْفِ . وَعَجِبْتُ مِنْ تَخَيُّرِها هٰذا الْمَكانَ . وَلَمْ أَهْتَدِ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ . ثُمَّ نادَيْتُها بِاسْمِها ، فَأَسْرَعَتْ إلَيَّ ، وَوَقَفَتْ عَلَى إِبْهامِى ، وَهِىَ تُكَرِّرُ سُؤَالَها مَسْرُورَةً مُبْتَهِجَةً بِلِقائِى :

« أَيْنَ كُنتَ يا رُوبِنْسَنْ كُرُوزُو ؟ أَيْنَ كُنْتَ يا مِسْكِينُ ؟ »

فَأَخَذْتُها مَعِى إلى اْلْكَهْفِ ، حَيْثُ عِشْتُ زُهاءَ عامٍ[1] فى عُزْلَةِ السَّجِينِ ولَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ[2] عَلَيَّ صَفائِى وَسَعادَتِى فى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ إلّا أَنَّها مُقْفِرَةٌ عازِبَةٌ[3] لَيْسَ بِها أَنِيسٌ .

٨ — صَيْدُ الْمِعِيزِ

وَقدْ أَتْقَنْتُ كَثِيرًا مِنَ الصِّناعاتِ ، وبَرَعْتُ فِيها بَراعَةً نادِرَةً ، وَنَجَحْتُ فى صِناعَةِ اْلْفَخّارِ وعَمَلِ السِّلالِ . وكُنْتُ أَصْطادُ اْلْمِعِيزَ والسَّلاحِفَ كُلَّما اْحْتَجْتُ إلى ذٰلِكَ . فَرَأَيْتُ اْلْبارُودَ اْلَّذِى اْدَّخَرْتُهُ عِنْدِى قَدْ نَقَصَ ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنفَدَ ، وبِذٰلِكَ أَعْجِزُ أَنْ أَصْطادَ شَيْئًا مِنَ الْحَيَوانِ .

فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْيِيرِ خُطَّتِى[4] هٰذِهِ ، فَنَصَبْتُ شِباكًا لِأَصْطادَ

(١) نحو سنة .   (٢) يكدر .   (٣) بعيدة .   (٤) طريقتى .

مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ. ولَمْ تَكُنْ شِباكِى صالِحَةً لِصَيْدِها، فَقَدْ أَفْلَتَتْ مِنْها الْمَعِيزُ الَّتِى وَقَعَتْ فِيها، لِضَعْفِ حِبالِها. فَلَجَأْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى.

وذٰلِكَ أَنِّى حَفَرْتُ حُفَرًا عَمِيقَةً فى الْجِهاتِ الَّتى اعْتادَتِ الْمِعْزَى أَنْ تَرْتادَها[1]، وغَطَّيْتُ تِلْكَ الْحُفَرَ بِشِباكٍ مِنْ شَجَرِ الصَّفْصافِ، وأَلْقَيْتُ عَلَيْها طَبَقَةً مِنَ التُّرابِ، وغَرَسْتُ فِيها سَنابِلَ مِنَ الرُّزِّ والشَّعِيرِ. وقَدْ أَخْفَقَتْ[2] هٰذِهِ الطَّرِيقَةُ — كَما أَخْفَقَتْ سابِقَتُها مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كانَتِ الْمَعِيزُ تَنْفِرُ مِنْها. ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ خُدِعَتْ — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَهَوَى فى إِحْدَى الْحُفَرِ تَيْسٌ عَنِيدٌ؛ فَلَمْ أُفْلِحْ فى تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهِياجِهِ، فاضْطُرِرْتُ إِلَى إِطْلاقِهِ. وَلَوْ أَنَّنى تَرَكْتُه فى الْحُفْرَةِ أَيَّامًا حَتَّى يُدَوِّخَهُ الْجُوعُ فَيَسْلَسَ[3] قِيادُهُ، لَتَمَّ لِى ما أَرَدْتُ. وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخاطِرِى إِلَّا تَنَيُّشًا[4].

ثُمَّ وَقَعَ فى حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ماعِزَتانِ صَغِيرَتانِ وَجَدْىٌ صَغِيرٌ، فَأَخَذْتُها جَمِيعًا إِلَى مَسْكَنى. وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئًا، ثُمَّ راضَها الْجُوعُ[5]، وأَضْطَرَّها إِلَى أَكْلِ ما قَدَّمْتُه لَها مِنَ الْحُبُوبِ.

---

(١) تروح فيها وتجيء. (٢) لم تنجح. (٣) يلين. (٤) بعد فوات الفرصة. (٥) ذللها.

وبَذَلتُ جُهْدِي في تَهْيِئَةِ مَرْعًى خِصْبٍ ، وَسَوَّرْتُهُ بِسِياجٍ مَتِينٍ مِنَ الأَعْشابِ الكَثِيفَةِ ، حَتَّى لا تَجِدَ إلَى الفِرارِ سَبِيلًا .

وظَلِلْتُ أَتَعَهَّدُها بِأَحْسَنِ أَلْوانِ الطَّعامِ الحَبِيبِ إلى نَفْسِها مِنْ سَنابِلِ الشَّعِيرِ وَحُبوبِ الرُّزِّ حَتَّى أَنِسَتْ بِي . فَفَكَكْتُ رِباطَها فَلَمْ تَهْرُبْ مِنِّي ، وَظَلَّتْ تَتْبَعُنِي أَنَّى سِرْتُ ، وتَثْغُو[١] فَرِحَةً بِمَقْدَمِي كُلَّما رَأَتْنِي . وَبَعْدَ عامٍ وَنِصْفِ عامٍ أَصْبَحَ لَدَيَّ قَطِيعٌ[٢] لا يَقِلُّ عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ جِدْيًا وَعَنْزًا . ثُمَّ تَضاعَفَ العَدَدُ عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ ، وَأَصْبَحَتْ حَياتِي رَغَدًا[٣] ، وَعِيشَتِي وادِعَةً ناعِمَةً ؛ فَقَدْ كانَتْ تُدِرُّ[٤] مَقادِيرَ وافِرَةً مِنَ اللَّبَنِ . فَلَمْ أُضِعْ هٰذِهِ الفُرْصَةَ ، وَعَزَمْتُ عَلَى صُنْعِ الجُبْنِ وَالزُّبْدِ مِنْ أَلْبانِها ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِذٰلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ .

وَما زِلْتُ أُدَرِّبُ نَفْسِي عَلَى هٰذا العَمَلِ ، حَتَّى وُفِّقْتُ إِلَيْهِ ، وَنَجَحْتُ فِي تَحْقِيقِهِ أَكْبَرَ نَجاحٍ .

٩ — رِفاقُ « رُوبِنْسن »

وكانَتْ مائِدَتِي — فِي كُلِّ يَوْمٍ — حافِلَةً[٥] بِشَتَّى أَلْوانٍ

---

(١) تردد صوتها . (٢) جمع . (٣) هانئة . (٤) تعطى . (٥) مملوءة

الْغِذاءِ . وقَدْ نَعِمْتُ بِرِفاقِ الْخُلَصاءِ : فالْبَبَّغاءُ تُنادِمُنِي[١] وَتُسَلِّينِي بِحَدِيثِها ، والْكَلْبُ يَجْلِسُ إلى يَمِينِي — عَلَى الْمائِدَةِ — وَيَجْلِسُ الْقِطَّانِ إلَى يَسارِي مُتَقابِلَيْنِ . وقَدْ عَلِمَ الْقارِئُ — فِيما سَبَقَ — أَنَّنِي أَحْضَرْتُ مَعِي قِطَّيْنِ مِنَ السَّفِينَةِ ؛ فَلْيَعْلَمِ الْقارِئُ الْآنَ أَنَّهما ماتا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، بَعْدَ أَنْ نَسَلا[٢] كَثِيرًا مِنَ الْقِطَطِ ، ولَمْ يُخْلِصْ لِي مِنْها غَيْرُ هٰذَيْنِ الْقِطَّيْنِ . أَمَّا إِخْوَتُهُما فَكانَتْ شِرِّيرَةً ماكِرَةً ، تَسْرِقُ كُلَّ ما تَلْقاهُ في طَرِيقِها مِنَ الطَّعامِ ؛ فَطَرَدْتُها مِنْ بَيْتِي شَرَّ طَرْدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ نَكَّلْتُ بِها[٣] . فَهَرَبَتْ إلى الْغابَةِ ، ولَمْ تَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى عادَتْ إِلَى طَبْعِها الْوَحْشِيِّ الشَّرِسِ

١٠ — زِيُّ « رُوبِنْسَنْ »

لَعَلَّ الْقارِئَ قَدِ اشْتاقَ إِلَى تَعَرُّفِ الزِّيِّ[٤] الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كُلَّما أَرَدْتُ أَنْ أَجُولَ فِي مَمْلَكَتِي الصَّغِيرَةِ . فَلْأُمَثِّلْ لَهُ ذٰلِكَ الزِّيَّ الْعَجِيبَ :

(١) تجالسنى . (٢) ولدا . (٣) آذيتها . (٤) الملبس .

كانَتْ قَلَنسُوَتِي (١) مُرْتَفِعَةً ، وقَدْ صَنَعْتُها مِنْ جِلْدِ عَنْزٍ .
وكانَتْ عَذَبَتُها(٢) مُدَلَّاةً عَلَى قَفَايَ لِتَحْمِيَنِي مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ .



وكانَ سِرْوالِي مَصْنُوعاً مِنْ جِلْدِ تَيْسٍ هَرِمٍ ، والشَّعَرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إلى نِصْفِ ساقِي .

* * *

وكُنْتُ أَضَعُ فِي حِزامِي — وهُوَ أَيْضًا مِنْ جِلْدِ الْمَعِيزِ — مِنْشارًا وقَدُومًا ، وأَحْمِلُ على كَتِفِي بُنْدُقِيَّةً ، وأَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِي سَلَّةً كَبِيرَةً ، فِيها طَعامِي وشَرابِي ، وفِي يَدِي مِظَلَّتِي ، لِتَقِيَنِي لَفْحَ الشَّمْسِ(٣) ، وهُطُولَ الأَمْطارِ .

(١) غطاء رأسي . (٢) طرفها (٣) حرها

الفصل السابع

جُمعَة

١ – آثارُ أقدامٍ



وفى ذاتِ يومٍ رَأَيْتُ آثارَ أقْدامٍ واضِحَةً عَلَى الرَّمْلِ ؛ فَتَمَلَّكَنِيَ الذُّعْرُ ، وخُيِّلَ إِلَيَّ أنَّ صاعِقَةً انْقَضَّتْ عَلَيَّ .

وَتَلَفَّتُّ حَوْلِي خائِفًا ، وَأَرْهَفْتُ أُذُنِي(١) فَلَمْ أَرَ إِنْسانًا، وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا .

وَصَعِدْتُ إلى أعْلَى

(١) أصغيت .

هَضْبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ ، وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي كلِّ مَكانٍ ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي هذا الْمَكانِ إِنْسِيًّا . وَقَدْ كِدْتُ أَظُنُّنِي واهِمًا[1] فِيما رَأَيْتُ ، وَلٰكِنَّ آثارَ الْقَدَمِ — وَهِيَ عارِيَةٌ — لَمْ تَدَعْ لِي مَجالًا لِلشَّكِّ . فَقَدْ رَأَيْتُ الْأَصابِعَ وَالْعَقِبَ مُرْتَسِمَةً عَلَى الرَّمْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رَيْبٌ[2] فِي حَقِيقَةِ ما رَأَيْتُ . فَأَسْرَعْتُ إِلى كَهْفِي ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ جَيْشًا لَجِبًا[3] يُطارِدُنِي . وَبِتُّ لَيْلَةً نابِغِيَّةً[4] ، وَلَمْ يَزُرِ النَّوْمُ جَفْنِي حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

وَلَزِمْتُ بَيْتِي ثَلاثَةَ أَيَّامٍ كامِلَةً ، ثُمَّ اضْطَرَّنِي الْجُوعُ إِلى الْخُرُوجِ إِلى بَيْتِيَ الْآخَرِ الَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ[5] .

٢ — الْحَيْطَةُ

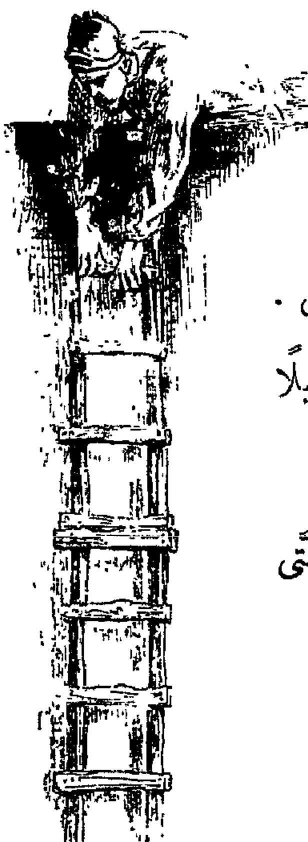
وَهٰكَذا تَمَلَّكَتْنِيَ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . فَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ — فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ — خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا ، لَمْ أَشْهَدْ فِيها أَحَدًا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رُؤْيَتِي أَثَرَ الْقَدَمِ .

---

(١) متخيلا . (٢) شك . (٣) كبيرا .
(٤) ليلة طويلة حافلة بالهموم . (٥) أشجار العنب .

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي : « لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقَارَّةِ الْمُجاوِرَةِ قَدْ وَفَدُوا عَلَى جَزِيرَتِي ؛ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتْرُكُونَها بَعْدَ أَنْ يَجِدُوها غَيْرَ صالِحَةٍ لِلْإِقامَةِ . »

ورَأَيْتُ أَنْ أَحْتاطَ لِلطَّوارِئِ ، حَتَّى لا يُفاجِئَنِيَ الْأَعْداءُ ؛ فَزِدْتُ فِي تَحْصِينِ مَغارَتِي ، كَما حَصَّنْتُ بَيْتِيَ الْآخَرَ .



وكُنْتُ لا أَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِيناً بِسُلَّمَيْنِ، فَإِذا انْتَهَيْتُ مِنْ صُعُودِيَ الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السُّلَّمَ، ثُمَّ وضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نائِيَةٍ[1] لِأَصِلَ إِلى حِصْنِي . ثُمَّ رَفَعْتُ السُّلَّمَ مَرَّةً أُخْرَى ، لِيُصْبِحَ مُسْتَحِيلًا عَلَى كائِنٍ كانَ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ .

ولَمْ يَمْضِ عَلَيَّ عامانِ — بَعْدَ ذٰلِكَ — حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى أَتَمِّ أُهْبَةٍ[2] لِلنَّجاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

٣ — آثارُ الْغِيلانِ

وفِي ذاتِ يَوْمٍ كُنْتُ أَرْتادُ الْجَزِيرَةَ عَلَى عادَتِي ،

---

(١) بعيدة . (٢) استعداد .

وأتعرَّفُ الجهاتِ النَّائيةَ الَّتي لَمْ تطأْها قدماي مِنْ قَبْلُ. فرأيتُ مِنْ آثارِ الْمُتَوَحِّشِينَ ما فزَّعني، وملأَ قلبي رُعْبًا وهلعًا. فقدْ ظهرَ لي أنَّ هؤلاءِ الْمُتَوَحِّشِينَ الْهَمَجَ يجيئُونَ بِالْأَسْرَى — بَعْدَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِمْ في مَعَارِكِهِمْ[1] — إِلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ يَشْوُونَ لُحُومَهُمْ عَلَى النَّارِ وَيَأْكُلُونَهَا. وقدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجَمَاجِمِ والْأَشْلاءِ[2] مُبَعْثَرَةً فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، عَلَى مَكانٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّمادِ الْكَثِيرِ الَّذِي خَلَّفَتْهُ النَّارُ.

ورجعتُ إلى مسكني مَهْمُومًا شديدَ الْأَلَمِ مِمَّا رأيتُ. وتبيَّنَ لي — حينئذٍ — أنَّ آثارَ تلكَ الْأَقْدامِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتي رأيتُها مُنْذُ عامَيْنِ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا آثارَ أقدامِ هؤلاءِ الْغِيلانِ. فاطْمَأَنَّتْ نفسي قليلًا، بَعْدَ أَنْ عرفتُ هٰذا السِّرَّ الَّذي لمْ أَهْتَدِ إلى مَعْرِفَتِهِ مَدَى عامَيْنِ، وكانَ مَجْلَبَةً[3] لِلْخَوْفِ والْفَزَعِ.

وأَدْرَكْتُ أَنَّ هؤلاءِ الْغِيلانَ لا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ في هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ، وأَنَّهُمْ لا يَجِيئُونَها إِلَّا لِيُقِيمُوا مَآدِبَهُمْ[4] فيها، كُلَّما ظَفِرُوا بِأَسْراهُمْ في الْحُرُوبِ.

---

(١) حروبهم. (٢) الأعضاء. (٣) سبباً. (٤) مجالس أكلهم.

وَلَقَدْ مَرَّ بِي ثَمانِيَةَ عَشَرَ عاماً ، لَمْ تَقَعْ عَيْنايَ — فِي أَثْنائِها — عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ما رأيتُ ، اعْتَصَمْتُ[١] بِالْحَذَرِ ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ لِلطَّوارِئِ ؛ حَتَّى لا تُفاجِئَنِي الْحَوادِثُ عَلَى غِرَّةٍ[٢] .

٤ — مَأْدُبَةُ الْغِيلانِ

وَفِي شَهْرِ « دِيسَمْبِرَ » — وكانَ قَدْ مَرَّ عَلَيَّ حِينَئِذٍ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ عاماً فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — لَمْ أَخْرُجْ مِنْ بَيْتِي لِلْحَصادِ فِي فَجْرِ هٰذا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ بَيْتِي . وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هٰؤُلاءِ الْغِيلانَ يَرْتادُونَ هٰذِهِ الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَدَهِشْتُ ، وَتَمَلَّكَنِي الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ . وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي مُسْرِعاً ، وَرَفَعْتُ السُّلَّمَ ، وَتَأَهَّبْتُ لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِي . وَظَلِلْتُ أَتَرَقَّبُ الْعَدُوَّ ساعَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ أُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ — بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ عَلَيْها السُّلَّمَيْنِ — وَانْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ . وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظارِي : فَرَأَيْتُ تِسْعَةً مِنْ هٰؤُلاءِ الْغِيلانِ جالِسِينَ — فِي شَكْلِ حَلْقَةٍ — حَوْلَ نارٍ

---

(١) تمسكت . (٢) غفلة .

مُوقَدَةٍ ، لِيُهَيِّئُوا طَعامَهُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَى ٱلَّذِينَ جاءُوا بِهِمْ إلى هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ .



وقَدْ جاءَ ٱلْغِيلانُ عَلَى زَوْرَقَيْنِ ، وجَذَبوهُما إلى ٱلشّاطِئِ ، وٱنْتَظَرُوا ٱلْجَزْرَ حَتَّى يَعودُوا أَدْراجَهُمْ . فَعلِمْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْكَبُونَ ٱلْبَحْرَ إلّا فى أَوْقاتِ ٱلْجَزْرِ ، فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِى إلى ذٰلكَ ، وَأَصْبَحْتُ أَمْشِى فى الْجَزِيرَةِ آمِنًا ، فى أَوْقاتِ الْمَدِّ . فَإِذا ٱنْحَسَرَ ماءُ ٱلْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذَرِى مِنْهُمْ ، وٱسْتَعْدَدْتُ لِلطَّوارِئِ وٱلْمُفاجَآتِ . ولَمْ يَبْدَإِ الْجَزْرُ حَتَّى رَكِبُوا ٱلزَّوْرَقَيْنِ . بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَوِيلًا ، وظَلُّوا يَجْذِفُونَ بِقُوَّةٍ حَتَّى ٱخْتَفَوْا عَنْ ناظِرِى ،

فَأَسْرَعْتُ إلَى ٱلْمَكانِ ٱلَّذِى كانَ يَجْلِسُ فيهِ هٰؤُلاءِ ٱلْغِيلانُ ؛ فَرَأَيْتُ



— مِنْ أَثَرِ ٱلْمَأْدُبَةِ ٱلَّتِى أَقامُوها — ما رَوَّعَنِى : رَأَيْتُ ٱلعِظامَ ٱلبَشَرِيَّةَ مُتَناثِرَةً حَوْلَ ٱلنّارِ ؛ فَثارَتْ نَفْسِى ، وكِدْتُ أَتَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . وقَدِ ٱشْتَدَّ حَنَقِى[1] عَلَى هٰذِهِ ٱلْقَسْوَةِ ، وعَزَمْتُ عَلَى ٱلْفَتْكِ بِأَوَّلِ مَنْ أُقابِلُهُ مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلغِيلانِ .

٥ — نَجاةُ الأَسِيرِ

وظَلِلْتُ مُصِرًّا على مُناجَزَةِ[2] ٱلْغِيلانِ مُدَّةً طويلَةً . وَمَضَى على ذٰلِكَ ثَمانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، لَمْ أَعْثُرْ — فى أَثْنائِها — عَلَى أَثَرٍ لِهٰؤُلاءِ الْهَمَجِ .

وفى صَباحِ يَوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوارِقَ ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ ٱلْقادِمِينَ لا يَقِلُّ عَنْ ثَلاثِينَ . فَرَجَعْتُ إلى حِصْنِى ، وَرَأَيْتُهُمْ

---

(١) زاد غيظى .   (٢) محاربة .

بِمِنْظارِي ؛ فَكانَ عَدَدُهُمْ كما تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ . وَتأَهَّبْتُ لِمُناجَزَتِهِمْ ، كَلَّفَنِي ذٰلِكَ ما كَلَّفَنِي . ورَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وقَدِ اُسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْمَرَحُ[١] . ثُمَّ أحْضَرُوا أسِيرَيْنِ ، فَقَتَلُوا أحَدَهُما ، وأُنْتَهَزَ الثَّانِي فُرْصَةَ اُشْتِغالِهِما بِالْأَوَّلِ فَلاذَ بِالْفِرارِ . وظَلَّ يَعْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ ، وَتَبِعَهُ ثَلاثَةٌ مِنَ الْغِيلانِ ، ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحاقَ بِهِ .

ثُمَّ اُعْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ ؛ فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وسَبَحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حتَّى أدْرَكَ الشَّاطِئَ الْآخَرَ ، ولَمْ يُبالِ بِارْتِفاعِ الْمَدِّ واُضْطِخابِ الْأَمْواجِ .

وتَعَقَّبَهُ اُثْنانِ ، وعادَ الثَّالِثُ إلى رِفاقِهِ .

ورَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِإِنْقاذِ هٰذا الْأَسِيرِ ؛ لِأَنَّنِي كُنْتُ فِي أشَدِّ الْحاجَةِ إلى خادِمٍ يُعاوِنُنِي فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ الْمازِبَةِ .

فَأَسْرَعْتُ إلَيْهِمْ — وَفِي يَدِي بُنْدُقِيَّتِي — وَأَشَرْتُ إلى الْأَسِيرِ أَنْ يَقِفَ ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ إلَيَّ ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُوَ[٢] مِنِّي ، وَحَسِبَنِي مِنْ أَعْدائِهِ . ثُمَّ فاجَأْتُ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشَيْنِ اللَّذَيْنِ يَتْبَعانِهِ ، فَضَرَبْتُهُ بِقَبْضَةِ بُنْدُقِيَّتِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً ؛ فَخَرَّ صَرِيعاً[٣] عَلَى الْأَرْضِ . وَحاوَلَ

(١) الفرح . (٢) يقرب . (٣) وقع ساقطاً .

الثَّانِي أَنْ يُفَوِّقَ[1] إِلَيَّ سِهامَهُ ؛ فَعاجَلْتُهُ بِرَصاصَةٍ أَرْدَتْهُ — مِنْ فَوْرِهِ — قَتِيلًا .

وَوَقَفَ الأَسِيرُ الهارِبُ — حِينَئِذٍ — وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَ دَوِيَّ[2] الرَّصاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي ؛ فَتَرَدَّدَ فِي إِطاعَةِ أَمْرِي . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ مَرَّةً ثانِيَةً ؛ فَاشْتَدَّ فَزَعُهُ ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ خُطُواتٍ يَسِيرَةً[3] ، ثُمَّ يَقِفُ مُتَرَدِّدًا وقَدْ أَذْهَلَهُ الرُّعْبُ . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ إِشارَةً ثالِثَةً ، وَأَنا أُحاوِلُ جَهْدِي أَنْ أُطَمْئِنَهُ وَأُسَكِّنَ مِنْ رَوْعِهِ . فَتَقَدَّمَ حَتَّى دانانِي ، وَجَثا[4] أَمامِي مُتَوَسِّلًا ضارِعًا ؛ فَهَشَشْتُ لَهُ ، فَانْثَنَى يُقَبِّلُ قَدَمِي ؛ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ مُتَوَدِّدًا حَتَّى أَذْهَبْتُ عَنْهُ الخَوْفَ .

ثُمَّ صَحِبْتُهُ إِلى مَغارَتِي ، وَأَطْعَمْتُهُ وَسَقَيْتُهُ ، وأَشَرْتُ إِلى كُومَةٍ مِنَ القَشِّ ، لِيَتَّخِذَها فِراشًا لَهُ ؛ فَذَهَبَ لِيَنامَ .

٦ — « جُمُعَة »

وَهٰكَذا انْقَضَى زَمَنُ العُزْلَةِ ، وَأَصْبَحَ لِي — مُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ —

(١) يوجه . (٢) صوت . (٣) قليلة . (٤) قعد على ركبتيه .

رَفِيقٌ أَمِينٌ ، شُجاعُ ٱلْقَلْبِ ، فِي مُقْتَبَلِ شَبابِهِ : لَمْ تَكُنْ سِنُّهُ تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ عاماً . وَكانَ هٰذا ٱلْخادِمُ مِثالَ النَّشاطِ وَالذَّكاءِ وَٱلْوَداعَةِ .

وَلَمْ يَنَمْ نِصْفَ ساعَةٍ حَتَّى ٱسْتَيْقَظَ ، وَخَرَجَ مِنَ ٱلْكَهْفِ مُسْرِعاً ، إلى أَن وصلَ إِلَيَّ — وكُنْتُ أَحْلُبُ عَنْزًا — فانْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ، ورَفَعَها فَوْقَ رَأْسِهِ ، لِيُفْهِمَنِي أَنَّهُ طَوْعُ أَمْرِي ورَهْنُ إشارَتِي . فَهَشَشْتُ لَهُ وأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى رَكَنَ إِلَيَّ ، وسُرِّيَ عَنْ نَفْسِهِ[1] ، وانْقَضَى ما كان يُساوِرُهُ[2] مِنَ ٱلْقَلَقِ .

ثُمَّ بَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَعْلِيمِهِ لُغَتِي ، لِيَسْهُلَ عَلَيْنا أَنْ نَتَفاهَمَ مَعاً . وقَدْ سَمَّيْتُهُ « جُمْعَةَ » ؛ لِأَنَّنِي أَنْقَذْتُهُ مِنَ ٱلْهَلاكِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلْجُمَعِ ، وهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ . ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُسَمِّيَنِي « ٱلسَّيِّدَ » ، وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتَيْ : « نَعَمْ » و « لا » . ثُمَّ قَدَّمْتُ لهُ جَرَّةً ، ومَلَأْتُ الْجَرَّةَ لَبَناً ، وغَمَسْتُ فِيها قِطْعَةً مِنَ ٱلْخُبْزِ وأَكَلْتُ . وأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْلِيدِي فِيما رَأَى مِنِّي .

---

(١) ذهب همه . (٢) يشغله .

وقَدِ اسْتَساغَ هٰذا الطَّعامَ[1] ، وبَدا عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ . ثُمَّ صَنَعْتُ لَهُ ثِياباً كَثِيابِى ، وَقَلَنْسُوَةً مِنْ جِلْدِ أرْنَبٍ . وَصَنَعْتُ لَهُ — فى الْيَوْمِ التَّالِى — كُوخاً بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِى لِيَنامَ فِيهِ ؛ لِأَنَّنِى كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تُعاوِدَهُ[2] وَحْشِيَّتُهُ ، فَيَفْتِكَ بِى — فى أثْنـاءِ نَوْمِى — وَيَأْكُلَنِى .



عَلَى أَنَّ الْأَيَّامَ أَقْنَعَتْنِى — بَعْدَ ذٰلِكَ — بِإِخْلاصِهِ ؛ فَلَمْ أَرَنِى فِى حاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ . وَقَدْ وَفَى لِى[3] وَفاءَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ ،

(١) وجده لذيذاً . (٢) ترجع إليه . (٣) حافظ على .

وَكانَ مُسْتَعِدًّا لِبَذْلِ رُوحِهِ فِداءً لِي . وَمَرَّتْ بنا الْأَيَّامُ سَعِيدَةً وادِعَةً(١) .

وَكُنْتُ — فِي ذاتِ يَوْمٍ — سائِرًا مَعَ « جُمْعَةَ » فِي أَحَدِ الْأَحْراجِ ، فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى أَحَدِ الْجِداءِ ؛ فَصَرَعْتُهُ(٢) . وَما رَآنِي صَرَعْتُ الْجَدْيَ — وَأَنا عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْهُ — حَتَّى اشْتَدَّ ذُعْرُهُ ، وَانْتَظَمَهُ الارْتِعاشُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَدْ أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرَّصاصَةِ ، وَظَلَّ يَبْحَثُ فِي ثِيابِهِ ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ . فَلَمَّا أَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ أَقَلُّ ضَرَرٍ ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ضارِعًا(٣) أَلَّا أَقْتُلَهُ . فَطَمْأَنْتُهُ — مَرَّةً أُخْرَى — وَلاطَفْتُهُ، وَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ



(١) هادئة . (٢) قتلته . (٣) راجياً .

يَذْهَبَ لِيُحْضِرَ ٱلْجَدْيَ . ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقِيَّتِي ، وَصَوَّبْتُها إِلَى بَبَّغاءَ جاثِمَةٍ[١] عَلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ ٱلْبَبَّغاءِ . وَما أَطْلَقْتُ عَلَيْها ٱلرَّصاصَةَ حَتَّى ٱشْتَدَّ ذُعْرُهُ ، وَعَجِبَ مِمَّا فَعَلْتُ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ ٱلْحَيْرَةُ ؛ وَأَصْبَحَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا كُلَّما رَأَى تِلْكَ ٱلْبُنْدُقِيَّةَ .

وَكانَ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ يُكَلِّمُها مُسْتَعْطِفًا ، ضارِعًا إِلَيْها أَنْ تُبْقِيَ عَلَى حَياتِهِ ، وَأَلَّا تَصْرَعَهُ كَما صَرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلُ ! وَلَمَّا جاءَ ٱلْمَساءُ سَلَخْتُ ٱلْجَدْيَ ، وَشَوَيْتُهُ ، وَأَطْعَمْتُ « جُمْعَةَ » مِنْ لَحْمِهِ ؛ فَٱسْتَمْرَأَهُ[٢] . وَأَصْبَحَ — مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ — يَعافُ[٣] ٱللَّحْمَ ٱلْبَشَرِيَّ ، وَلا يَسْتَسِيغُهُ طَعامًا .

٧ — نَشاطُ « جُمْعَةَ »

وَفِي ٱلْأَيَّامِ ٱلتَّالِيَةِ دَرَّبْتُ « جُمْعَةَ » عَلَى ٱلْحَرْثِ وَٱلْبَذْرِ ، وَوَضْعِ ٱلشَّعِيرِ فِي ٱلسِّلالِ ، وَطَحْنِهِ وَعَجْنِهِ وَخَبْزِهِ . وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى أَكْسَبَتْهُ ٱلْمَرانَةُ قُدْرَةً نادِرَةً عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ دَرَّبْتُهُ عَلَيْهِ . وَأَصْبَحَ لِي خَيْرَ مِعْوانٍ ، بِفَضْلِ ما وَهَبَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلذَّكاءِ وَٱلنَّشاطِ

---

(١) قاعدة . (٢) استحسنه . (٣) يكره .

وَٱلْإِخْلاصِ . وَشَعَرْتُ بِالسَّعادَةِ تَغْمُرُنِى(١) ، مُنْذُ وَجَدْتُ ذٰلِكَ ٱلْأَمِينَ ٱلذَّكِىَّ . وَقَدْ أَصْبَحَ يُخْلِصُ لِى بِمِقْدارِ ما أُخْلِصُ لَهُ ؛ وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ ٱلْمَحَبَّةِ بَيْنَنا ، وَعَرَفَ أَسْمَاءَ ٱلْأَشْياءِ ٱلَّتِى نَحْتاجُ إِلَيْها ، وَحَذَقَ تَخْطِيطَ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ وَمَسَالِكَها ؛ فَأَراحَنِى مِنَ ٱلْعَناءِ ، وَوَفَّرَ لِى أَسْبابَ ٱلرَّاحَةِ ، وكانَ لِى نِعْمَ ٱلْأَنِيسُ .

٨ — وَطَنُ « جُمْعَةَ »

وَفِى ذاتِ يَوْمٍ جَرَّنا ٱلْحَدِيثُ إِلَى ٱلْكَلامِ عَنِ ٱلْوَطَنِ ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ طَرِيقِ ٱلْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَهَلْ يَأْمَنُ رَاكِبُ ٱلْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ فِى أَثْناءِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ ؟ فَأَثْبَتَ أَنَّ ٱلْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ . وَظَلَّ يُحَدِّثُنِى عَنْ وَطَنِهِ أَحادِيثَ ٱلْمُعْجَبِ ٱلْمَفْتُونِ بِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَنِى أَنَّ فِى ٱلْجِهَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ بِلادِهِمْ قَوْمًا بِيضَ ٱلْوُجُوهِ ؛ فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَعْنِى بِذٰلِكَ قَوْمًا مِنَ ٱلْإِسْبانِيِّينَ ، وَأَنَّ طَرِيقَ ٱلذَّهابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ مَأْمُونٌ . فَٱنْفَتَحَ أَمامِى بابُ ٱلْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلاصِى مِنْ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ . وَعَقَدْتُ ٱلْعَزْمَ عَلَى إِعْدادِ ٱلْمُعَدَّاتِ لِلسَّفَرِ

---

(١) تملأ نفسى .

إلى هؤلاءِ الْقوْمِ ، حَيْثُ أَجِدُ الْوَسائِلَ مُهَيَّأةً لِلرُّجُوعِ إلى وَطَنِي .



ثُمَّ حَدَّثَنِي أنَّ زَوْرَقًا كَبِيرًا قَدِ انْقَلَبَ بِراكِبِيهِ — مُنْذُ أعْوامٍ — وَكانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْبِيضِ أمْثالى ، وَقَدْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ ، وَأقامُوا — وَما زَالُوا يُقِيمُونَ — بَيْنَ عَشِيرَتِهِ وقَوْمِهِ .

فَسَأَلْتُهُ : « وَكَيْفَ سَلِمُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ ؟ أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ ؟ »

فَقالَ لى مُتَثَبِّتًا :

« بَلْ أَصْبَحُوا إخْوَةً لَنا ؛ فَإنَّ بَنِي وَطَنِي لا يَأْكُلُونَ إلَّا أَسْراهُمْ فى الْحَرْبِ . أَمَّا الأَصْدِقاءُ الْمُسالِمُونَ فَلا ينالُونَهُمْ بِسُوءٍ . »

٩ — ذِكْرَياتُ ٱلْوَطَنِ

وَمَضَى عَلَى هٰـذا الْحَديثِ زَمَنٌ طَويلٌ . ثُمَّ ٱرْتَقَيْنا[١] — ذاتَ يَوْمٍ — قِمَّةَ جَبَلٍ شاهِقٍ[٢] ، وكانَ الْجَوُّ صَحْوًا ؛ فَلاحَتِ[٣] الْقارَّةُ الْبَعيدَةُ . وما أَنْعَمَ « جُمْعَةُ » نَظَرَهُ مُتَثَبِّتًا مِنْ رُؤْيَةِ وَطَنِهِ حتَّى غَلَبَهُ السُّرُورُ عَلَى أَمْرِهِ ؛ فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرَحِ ، وَيَصيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

« وافَرْحَتاهُ ! واطَرَباهُ ! هأَنَذا أَرَى بِلادِي ! هأَنَذا أَرَى وطَنِي ! »

وٱمْتَلأَ وَجْهُهُ بِشْرًا وسُرُورًا ، وارْتَسَمَتْ عَلَى أَساريرِهِ[٤] دَلائِلُ الْحَنينِ والشَّوْقِ إلى وَطَنِهِ ، فَسَأَلْتُهُ :

« أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلى بِلادِكَ ؟ »

فَأَجابَنِي ، وهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْقًا :

« لَيْتَ هٰذِهِ الأُمْنِيَّةَ تَتَحَقَّقُ ، يا سَيِّدِي ! »

فَقُلْتُ لَهُ :

« وماذَا تَصْنَعُ فى بِلادِكَ ؟ أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلى وَحْشِيَّتِكَ ، وتَرْتَدَّ

---

(١) صعدنا . (٢) عال . (٣) ظهرت . (٤) خطوط جبينه .

إِلَى طَبِيعَتِكَ الأُولَى ، فَتُصْبِحَ غُولًا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ؟ »

فَقَالَ لِي ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ :

« كَلَّا ، كَلَّا . . فَإِنَّ « جُمْعَةَ » لَنْ يَعُودَ غُولًا كَمَا كَانَ ! وَسَوْفَ يَقُصُّ عَلَى قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَشْتَمِرِئُ الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ ، وَمَا إِلَى ذَٰلِكَ مِنْ لَذَائِذِ الطَّعَامِ . أَمَّا لَحْمُ الْإِنْسَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ « جُمْعَةُ » يَعَافُهُ وَلَا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اتِّخَاذِهِ طَعَامًا لَهُ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَوْ عَرَفُوا مِنْكَ ذَٰلِكَ لَأَكَلُوكَ ! »

فَقَالَ لِي : « كَلَّا ، لَا يَأْكُلُونَنِي ، بَلْ يَتَعَلَّمُونَ مِنِّي كَيْفَ يُنَظِّمُونَ حَيَاتَهُمْ ، وَكَيْفَ يَسْتَسِيغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ . »

فَسَأَلْتُهُ : « أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ الْآنَ ؟ »

فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هَٰذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ سِبَاحَةً . »

فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوَصِّلُهُ إِلَى وَطَنِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « حَبَّذَا ذَٰلِكَ لَوْ تَمَّ ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي هَٰذِهِ الرِّحْلَةِ . وَسَتَرَى كَيْفَ يَغْمُرُكَ أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْكُلَكَ ، وَلَا سِيَّمَا

إذا أخبرتُهم بأنَّك أنقذتَ حياتى مِنَ الْهلاكِ . »

وَما زالَ يُحبِّبُ إلَىَّ الذَّهابَ مَعَهُ إلى وَطَنِه ، ويَقُصُّ عَلَىَّ كَيْفَ أَكْرَمُوا جَماعةَ الْبِيضِ الَّذِينَ وصَلُوا إِلَيْهِمْ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، وكَيْفَ أَنِسُوا بِهِمْ ، وارْتاحُوا إلى عِشْرَتِهِمْ ؛ حتَّى أجْمَعْتُ أمْرِى(١) وَتأَهَّبْتُ لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ ؛ لَعَلِّى أتَمَكَّنُ مِنَ الْعَوْدَةِ بَعْدَ ذٰلِكَ إلَى وَطَنِى .

١٠ — الْمَرْكَبُ الشِّراعِىُّ

وَاشْتَدَّتْ رَغْبَتِى فى تَحْقيقِ هٰـذا الْحُلْمِ الْجَميلِ ، فَذَهَبْتُ مَع « جُمْعةَ » إلى الْمَـكانِ الذى وَضَعْتُ فيهِ زَوْرَقِى ، ثُمَّ رَكِبْناهُ معًا ؛ فَرَأَيْتُ « جُمْعَةَ » أمْهَرَ مِنِّى وَأقْدَرَ على مُتابَعَـةِ السَّيْرِ ومُضاعَفَةِ السُّرْعَةِ .

فَقُلْتُ لهُ : « أَفِى استِطاعَتِكَ الآنَ أنْ تَذْهَبَ إلى وَطَنِكَ ؟ »

فقالَ : « لَنْ يَحْتَمِلَ هٰذا الزَّوْرَقُ الصَّغيرُ تِلْكَ الرِّحْلَةَ الطَّويلَةَ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « عَلَيْنا أنْ نُعِدَّ زَوْرَقًا أكْبَرَ مِنْهُ لِتَرْكَبَهُ إلى وَطَنِكَ . »

فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إلى الأَرْضِ ، وقالَ لى مُتَأَلِّمًا مَحْزونًا :

---

(١) عزمت .

« ما الَّذى أغْضَبَ سَيِّدِى علىَّ ؟ وَما بالُ سَيِّدِى يُحاوِلُ أنْ يُقْصِىَ[١] عنهُ خادِمَهُ جُمْمةَ ؟ »

فَقُلْتُ لهُ : « ألَا تتمَنَّى أنْ تَعُودَ إلى وَطَنِكَ ؟ »

فقالَ : « نعمْ ، نَعم ، أتَمَنَّى ذٰلك مِن صَمِيمِ قَلْبِى ، على أَنْ أكونَ رَفيقَكَ فى الْعَوْدةِ إلى بلادى . أمَّا أنْ أترُكَ صُحْبَتَكَ وَأَعُودَ وَحْدِى ، فَلا سبيلَ إلى ذٰلكَ . فليْسَ فى قُدْرَتى أَنْ أَحْتَمِلَ فِراقَكَ بَعْدَ أَنِ امْتَلَأَ قَلْبِى بِحُبِّكَ ، أيُّها السَّيِّدُ الكَرِيمُ ، الَّذى غَمَرَنى بِعطْفِه ، وطَوَّقَ عُنُقِى بِصَنائِعِه[٢] . » فَتظاهَرْتُ بِالْإِصْرارِ[٣] لِأَخْتَبِرَ مَدَى حُبِّهِ إِيَّاىَ .

فَلمَّا رَآنِى جادًّا فى رَفْضِى ، غابَ عنِّى قليلًا ، ثُمَّ عادَ إِلَىَّ وَفِى يَدِهِ قَدُومٌ ، وقالَ لى ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْيأْسُ والْحُزْنُ :

« بِرَبِّكَ اُقْتُلْنِى بِهٰذِهِ الْقَدُومِ ، وَأَرِحْنِى مِن الْحياةِ ، ما دُمْتَ مُصِرًّا على إِرْسالِ « جُمْمةَ » إِلَى قَوْمِهِ ! »

فَلمْ أتَرَدَّدْ فى إِظْهارِ مُوافَقَتِى على السَّفَرِ معهُ ، بعْدَ أنْ بَلَوْتُ إِخْلاصَهُ[٤] ، وَعَرَفْتُ مَدَى حُبِّهِ إِيَّاىَ . وَوَعَدْتُه بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِه فى

---

(١) يبعد . (٢) الأفعال الجميلة . (٣) العزم والثبات . (٤) عرفته .

مُرافقَتِه إلى وَطنِه . ولَمْ نُضِعْ وَقتَنا عَبَثًا ، بَعْدَ أنْ عزَمْنا عَلَى الْقيامِ بِهٰذهِ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ ؛ فَذَهَبْنا إلى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فقَطَعْناها . وَما زِلْنا دائِبَيْنِ(١) في الْعَمَلِ حتَّى صَنَعْنا زَوْرَقًا كَبيرًا في خِلالِ شَهْرٍ كامِلٍ . وبَعْدَ خمْسَةَ عشَرَ يوْمًا ، اُسْتَطَعْنا أَنْ نُنزِلَ الزَّوْرَقَ في الْبَحْرِ . وقَدْ تَكَبَّدْنا(٢) في سَبيلِ ذٰلكَ عَناءً لا يُوصَفُ . ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنا شَهْرانِ بَعْدَ هٰذا ، حتَّى أتمَمْنا صُنْعَ الشِّراعِ والسَّارِيَةِ ، كما أَنْجَزْنا صُنْعَ السُّكَّانِ(٣) وقَدْ بَذَلْتُ الْجُهْدَ في تَدْريبِ « جُمْعَةَ » على تَسْييرِ هٰذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيِّ حتَّى حَذَقَهُ وَأَتْقَنَهُ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هٰذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيِّ عَهْدٌ ، ولَمْ يَرَ لَهُ شَبيهًا طُولَ عُمُرِهِ ؛ فَقَدْ كانَ قَوْمُهُ لا يَعْرِفونَ إلَّا الْجَذْفَ وَحْدَهُ ؛ أَمَّا اُسْتِخْدامُ الشِّراعِ والسُّكَّانِ ، فَذٰلكَ ما لَمْ يَأْلَفُوهُ ، ولَمْ يَسْمَعُوا بِهِ . وقَدْ أَكْسبَتْهُ الْمَرانَةُ قُدْرةً عَجيبَةً على تَسْييرِ مَرْكَبِنا الشِّراعِيِّ ، وأَصْبَحَ — بَعْدَ قَليلٍ مِنَ الزَّمَنِ — رُبَّانًا(٤) ماهِرًا .

وَهٰكَذا تَمَّ لَنا إعْدادُ الْعُدَّةِ لِلسَّفَرِ إلَى وطَنِ « جُمْعَةَ » ، ولَمْ يُعْوِزْنا(٥) شَيْءٌ مِنَ الْمُعَدَّاتِ .

(١) مواظبين . (٢) قاسينا . (٣) الدفة . (٤) قائد سفينة . (٥) لم ينقصنا .

١١ — حَرْبُ الأَعْداء

ومَضَتْ عَلَيَّ ثَلاثُ سَنَواتٍ بَعْدَ ذٰلِكَ . وقَدْ أصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ — حِينَئِذٍ — جَنَّةً نَضِرَةً[1] ، بَعْدَ أنْ كانَتْ مَنْفًى مُوحِشاً . فَقَدْ آنَسَنِي « جُمْعَةُ » بَعْدَ وَحْشَةٍ ، وتَغَلَّبَ إخْلاصُهُ وحُبُّهُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْنا فى حَياتِنا .

وجاءَ الْعامُ السَّادِسُ والْعِشْرُونَ ، وأنا أَتَرَقَّبُ الْخَلاصَ مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ . فَلَمَّا أقْبَلَ الشِّتاءُ ، وضَعْنا الزَّوْرَقَ فى مَكانٍ أمِينٍ ، حَتَّى انْقَضَى « نُوفَمْبِرُ » و « دِيسمبِرُ » . ثُمَّ أخَذْنا نَهَيِّئُ الأَسْبابَ ، ونَسْتَكْمِلُ مُعَدَّاتِ السَّفَرِ إلَى وَطَنِ « جُمْعَةَ » .

وإنَّا لَجادَّانِ — فى صَباحِ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، وقَدْ خَرَجَ « جُمْعَةُ » لِصَيْدِ السَّلاحِفِ كَعادَتِهِ — إذْ عادَ إلَيَّ مُسْرِعاً ، وهُوَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْرِ ، ويَصِيحُ خائِفاً : « يا لَلْهَوْلِ ، يا سَيِّدِى ! »

فَسَأَلْتُهُ : « أَيَّ هَوْلٍ تَعْنِي ؟ »

فَقالَ : « ثَلاثَةُ زَوارِقَ تَدْنُو إلَيْنا ، قادِمَةً عَلَيْنا . »

---

(١) بجيلة خضراء .

فَظَلِلْتُ أُطَمْئِنُهُ وأُسَرِّى عن نَفْسِهِ ، وهُوَ لا يَـكادُ يُصْغِى لِما أَقُولُ ؛ فَقَدْ كانَ مُوقِناً أَنَّ أَعْداءَهُ لَمْ يَعُودُوا إِلَى الْجَزِيرةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ ، ويُمَزِّقُوا جِسْمَهُ ، ويَشْوُوهُ عَلَى النَّارِ !



فَقُلْتُ لهُ : « تَشَجَّعْ يا « جُمْعَةُ » ؛ فَلَنْ يُفِيدَكَ الْجَزَعُ شَيْئاً ، ولَنْ يُبْقِىَ الْأَعْداءُ عَلَى أَحَدٍ مِنَّا إذا ظَفِرُوا بِهِ . ولَيْسَ لَنا إِلَّا أَنْ نُوَطِّنَ نَفْسَيْنا[١] عَلَى قِتالِهِمْ . وسأَبْذُلُ نَفْسِى مِنْ أَجْلِكَ ، فَلا تُخالِفْ لِى أَمْرًا . وستَرَى كَيْفَ نَحْصُدُهُمْ[٢] بِرَصاصِنا حَصْدًا . »

وَما زِلْتُ بِهِ حتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجاعَتَهُ ؛ فَبَنَى عَزْمَهُ على أَنْ يَسْتَبْسِلَ[٣] فى قِتالِهِمْ ، حتَّى نَنْتَصِرَ علَيْهِمْ أَوْ نَمُوتَ كَرِيمَيْنِ .

---

(١) نقويها . (٢) نهلكهم . (٣) يعرض نفسه للموت

وَتأهَّبنا لِمُحارَبَتِهِمْ ، فارْتقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ ؛ فرَأَيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِي — واحِدًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا جالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ . فَنَزَلْتُ إلى سَفْحِ الْجَبَلِ[1] ، وَأَرْسَلْتُ « جُمْعَةَ » لِيَتَعَرَّفَ ما يَصْنَعُونَهُ ؛ فَعادَ إِلَيَّ — بَعْدَ قَليلٍ — وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ يَشْوُونَ أَحَدَ الْأَسْرَى على النَّارِ



لِيأْكُلُوا لَحْمَهُ . فَذَهَبْتُ إلى الْغابَةِ وَمَعِي « جُمْعَةُ » ، واخْتَفَيْنا بَيْنَ أَشْجارِها الْكَثِيفَةِ ، حتّى أَصْبَحْنا على مسافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَعْداءِ ؛

---

(١) أسفله

فرأينا رجلًا أبيضَ الوجهِ، مُلتحيًا، مشدودَ الوثاقِ، مطروحًا على الرمل فصبرتُ عليهم، حتّى إذا شرعوا فى حلِّ وثاقِه، أمرتُ «جُمعةَ» أنْ يُطلِقَ الرصاصَ معِى فى وقتٍ واحدٍ. وكانت مُفاجأةً عجيبةً؛ فقد قتلَ «جُمعةُ» — وحدَه — اثنينِ منهم وجرحَ ثلاثةً، وقتلتُ رجُلًا واحدًا وجرحتُ اثنين



وما سمِعَ الأعداءُ دوِىَّ الرصاصِ، ورأَوْا ما حلَّ بأصحابِهم منَ الهلاكِ والأذى، حتّى تملّكَهُم الخوفُ، واستحوذَ عليهِم الذُّعْرُ؛ فلاذُوا بالفِرارِ[1]، وهُم لا يكادُونَ يُصدِّقُونَ بالنَّجاةِ. وركِبُوا زورقَيْنِ ليَهرُبُوا إلى بلادِهِم منْ هٰذهِ الصواعِقِ الّتى لمْ يرَوْا لها، فى حياتِهم، مثيلًا. فاقترَبتُ منَ الرجُلِ الأبيضِ وحيَّيتُه؛ فوجدتُه

(١) لجأوا إلى الهرب.

أقْرَبَ إلى الْمَوْتِ مِنْهُ إلى الْحَياةِ. فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ ، وَسَقَيْتُهُ وَأَطْعمتُه ، حتَّى عادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ ، وَأَفاقَ مِنْ إغماءَتِهِ ؛ فَشَكَرَ لِي صَنِيعِي أحْسَنَ الشُّكْرِ . وَقدْ عَلِمتُ أنَّهُ إسْبانِيُّ الأَصْلِ ، وَأَنَّ سُوءَ حَظِّهِ أوْقَعَهُ أسِيرًا فى تِلْكَ الْبِلادِ .

١٢ — أبو « جُمْعَةَ »

وَرَأَى « جُمْعَةُ » زَوْرَقًا تَرَكَهُ الأعداء ؛ فاقْتَرَحَ عَلَيَّ أنْ نَرْكَبَهُ لِنُطارِدَهُمْ وَنَمْلأَ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا وَهَلَعًا . فَأَعْجَبَنِي اقْتِراحُهُ ، وَما وَصَلْنا إلى الزَّوْرَقِ ، حتَّى رَأَيْنا فِيهِ أسِيرًا ثالِثًا . فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ ، وَحاوَلْتُ أَنْ أُنْهِضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ ؛ فَوَجَدْتُهُ لا يَتَماسَكُ ، مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ .



وَلَمْ يَرَ « جُمْعَةُ » هٰذا الأَسِيرَ حتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ وَيُعانِقُهُ ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ الْفَرَحُ حتَّى كادَ يُسْلِمُهُ إلى الْجُنُونِ . فَظَلَّ يَبْكِي وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ

وَيفْرُكُ يَدَيْهِ ، وَيَعَضُّ أَناملَهُ ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ ، وَيُغَنِّى ، وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أَسْتَوْضِحَهُ سِرَّ هٰـذا الْخَبالِ[1] ، وَهُوَ لا يُصْغِى إِلَىَّ . ثُمَّ هَدَأَ قَليـلًا ، وَالْتَفَتَ إِلَىَّ قائِلًا : « اِعْلَمْ أَنَّ هٰذا الْأَسيرَ هُوَ أَبِى . وَقَدْ أَنْقَذَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ .



فَكَيْفَ لا يَتَمَلَّـكُنِى الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ ! »

فَتَرَكْتُهُ فى فَرَحِهِ ، وَأُعْجِبْتُ بِهٰذا الْحُبِّ الْبَنَوِىِّ . وَقَدْ أَقْبَلَ « جُمْعَةُ » على أَبيهِ يُدْفِئُهُ وَيَتَعَهَّدُهُ — فِى حُنُوِّ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ الْبارِّ — وَيفْرُكُ لَهُ ساقَيْهِ اللَّتَيْنِ أَضَرَّ بِهِما الْوِثاقُ ، وَيَسْقِيهِ تارَةً ، وَيُطْعِمُهُ تارَةً أُخْرَى ، حتَّى أَعادَ إِلَيْهِ قُواهُ .

فَأَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يُعْنَى[2] بِالرَّجُلِ الإِسْبانِىِّ — كَما عُنِىَ بِأَبِيهِ — فَلَمْ

---

(١) الجنون . (٢) يهتم .



يَتَرَدَّدْ فى إطاعَةِ أَمْرِى .

ثمَّ حَمَلْنا الإسْبانِىَّ وَأَبَا « جُمْعَةَ » على لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ ، لِعَجْزِهِما عَنِ السَّيْرِ ، حتَّى وَضَعْناهُما فِى خَيْمَةٍ أَقَمْناها بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ ، وَأَعْدَدْنا لِكُلٍّ مِنْهُما فِراشًا مِنَ الْقَشِّ . وَكانَ « جُمعةُ » خَيْرَ تَرْجُمانٍ يَنْقُلُ لِى مايَقُولُهُ أَبُوهُ وَالْإسْبانِىُّ الَّذِى أَتْقَنَ لُغَةَ أَعْدائِهِ ، لِطُولِ عِشْرَتِهِ وَإقامَتِهِ بَيْنَ ظَهْرانَيْهِم[1] .



ثُمَّ أَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يَدْفِنَ الْقَتْلَى ، حتَّى لا تَفْسُدَ جُثَثُهُمْ ، فَتُحْدِثَ رائِحَتُها الْأَمْراضَ الْخَبِيثَةَ ؛ فَقامَ بِهٰذا الْعَمَلِ خَيْرَ قِيامٍ ،

(١) معهم .

١٣ — بَعْدَ فِرارِ الأَعْداء

وَقَضَيْنا زَمَناً طَويلًا ، وَنَحْنُ نَتَعاوَنُ عَلَى زَرْعِ الْأَرْضِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْبابِ الرَّاحَةِ وَالرَّخاء ، وَيَأْتَنِسُ بَعْضُنا بِبَعْضٍ . وَسُرْعانَ ما تَمَّتِ الْأُلْفَةُ بَيْنَنا جَمِيعاً ، وَأَصْبَحْنا أَصْفِياءَ مُتَحابِّينَ .

وَقَدْ سَأَلْتُ أَبا « جُمْعَةَ » ، ذاتَ يَوْمٍ : « أَتُرانا[1] فِي خَطَرٍ مِنْ غارةِ أَعْدائِنا ، مَرَّةً أُخرى ؟ » فقالَ لِي ، فِي لَهْجَةِ الحازِمِ الْمُسْتَيْقِنِ[2] : « كَلَّا ، لا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ بَعْدَ هٰذِهِ النَّكْبَةِ . وما أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنَ



الْعاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ ، فِي أَثْناء فِرارِهِمْ . وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْها ، لَما وَجَدُوا مِنَ الشَّجاعَةِ ما يَحْفِزُهُمْ[3] إِلَى مُعاوَدَةِ الْكَرَّةِ ؛

---

(١) أتحسبنا . (٢) المتثبت . (٣) يدفعهم .

فقَدْ أطارَ دَوِيُّ الرَّصاصِ عُقُولَهُمْ . وَسَيَقُصُّونَ على أَهْلِهِمْ وَأَصْحابِهِمْ ما رَأَوْهُ مِنَ الصَّواعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتِي أفنَتْ جَماعةً مِنْ رِفاقِهِمْ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتَحَدَّثُ — فِي أَثْناءِ فِرارِهِ — وَهُوَ مَذْهُوشٌ مِمَّا رَأى ، وَقَدْ مَلَأَتْهُ الحَيْرَةُ وَالعَجَبُ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إلى تَعْليلٍ يُفَسِّرُ بِهِ قُدْرَةَ أَعْدائِهِ عَلَى قَذْفِهِمْ بِالصَّواعِقِ ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكِ(١) لِلْفَتْكِ بِمَنْ يُرِيدُونَ ، عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، دُونَ عَناءٍ . »

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فى تَكَهُّنِهِ وَحَدْسِهِ(٢) ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ — فِيما بَعْدُ — أَنَّ أَعْداءَنا قَدْ أذاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِهِمْ — بَعْدَ أَنْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — أَنْباءَ الصَّواعِقِ الَّتِي أَمْطَرْناها عَلَيْهِمْ ؛ فَمَلَئُوا قُلُوبَهُمْ رُعْبًا ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ مَمْلُوءَةٌ جِنًّا وَعَفارِيتَ ، فَلَمْ يَجْرُءُوا عَلَى الدُّنُوِّ مِنْها بَعْدَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ . عَلَى أَنَّنِي تَأَهَّبْتُ لِنِضالِهِمْ(٣) ، وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُم زَمَنًا طَوِيلًا ، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ . فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي ، وَانْصَرَفْتُ إلَى التَّفْكِيرِ فِي الْعَوْدَةِ إلَى وَطَنِي . وَمَرَّتْ بِنا سِنُونَ عِدَّةٌ ، وَنَحنُ آمِنُونَ وادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعازِبَةِ(٤) . وَقَدْ سَهُلَ عَلَيْنا أَنْ

---

(١) استخدامهما وقهرهما . (٢) ظنه وتقديره . (٣) محاربتهم . (٤) البعيدة .

نُنجِزَ[1] — مُتَعاوِنِينَ — كلَّ ما نَحْتاجُ إِلَيْهِ .

وقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْبانِيِّ أَنَّ عَدَدَ أَصْدِقائِهِ — مِنَ الْإِسْبانِيِّينَ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ ، ولَدَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْبُنْدُقِيَّاتِ والْمُسَدَّساتِ ، ولَيْسَ يُعوزُهُمْ[2] إِلّا الرَّصاصُ والْبارُودُ . وقَدْ حاوَلُوا الْعَوْدَةَ إِلَى بِلادِهِمْ ؛ فَأَعْوَزَتْهُمُ الْمُعَدَّاتُ ، فَأَقامُوا فِى تِلْكَ الْبِلادِ مُرْغَمِينَ[3] . فَسَأَلْتُهُ : « أَتُراهُمْ يُلَبُّونَ[4] اقْتِراحِى ، إِذا هَيَّأْتُ لَهُمْ أَسْبابَ السَّفَرِ ؟ »

فَقالَ لِى : « لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْأُمْنِيَّةِ . »

وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أَبِي « جُمْعَةَ » لِمُقابَلَتِهِمْ ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ فِى ذٰلِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِى : إِنَّهُ سَيَكُونُ — هُوَ وَرِفاقُهُ — رَهْنَ إِشارَتِى ، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِالْوَفاءِ لِى ، قَبْلَ أَنْ يُحْضِرَهُمْ إِلَى جَزِيرَتِى . وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ ، رَكِبَ الْإِسْبانِيُّ وَالشَّيْخُ زَوْرَقَ الْأَعْداءِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدْتُهُما بِكُلِّ ما يَحْتاجانِ إِلَيْهِ ، مِنْ طَعامٍ وَسِلاحٍ ، وَرَجَوْتُ لَهُما سَفَرًا سَعِيدًا وَعَوْدًا حَمِيدًا .

---

(١) نتم . (٢) لا ينقصهم . (٣) مكرهين . (٤) ينفذون .

الفصل الثامن

العَوْدَةُ إلَى الوَطَن

١ — الْمُفاجَأَةُ

ظَلِلتُ أترَقّبُ عَوْدَةَ الشَّيْخِ وَالإسْبانىِّ ثَمانِيَةَ أيَّامٍ . ثمَّ وَقَعَ لِى حادِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لى على بالٍ . فقَدِ اسْتَيْقَظْتُ مِن نَوْمِي على صُراخِ « جُمْعَةَ » ، وهُوَ يَصيحُ ويُنادِى بأَعْلَى صَوْتِهِ .

« سَيِّدِى ! سَيِّدِى ! لقَدِ اقْتَرَبُوا مِنّا . »

فارْتَدَيْتُ ثِيابى — مِن فَوْرِى — وَأَسْرَعْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ . وَأجلْتُ لِحاظِي فى عُرْضِ الْبَحْرِ ، فرَأَيْتُ زَوْرَقًا شِراعِيًّا مُيَمِّمًا[1] جَزِيرَتَنا ؛ وهُو عَلَى بُعْدِ مِيلٍ ونِصْفِ ميلٍ منها . فَأمَرْتُ « جُمْعَةَ » أنْ يَتَرَيَّثَ[2] فى الأَمْرِ ، حتَّى نَتَعَرَّفَ جَلِيَّتَهُ[3] . وَأكَّدْتُ لهُ أنَّ راكِبِي الزَّوْرَقِ لَيْسُوا أصْحابَنا الَّذِينَ أرْسَلْنا أباهُ والإسْبانِىَّ لإحْضارِهِمْ ،

(١) قاصداً . (٢) يتمهل . (٣) حقيقته .

وليْسَ فى قُدْرَتِنا أنْ نعرِفَ : أأعْداء لَنا أمْ أصْدقاء ؟

ثمَّ ارْتَقَيتُ[١] قِمَّةَ الجبَلِ ، وَرَأَيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِى — سَفينَةً واقِفَةً على مَسافةِ مِيلَيْنِ ونِصْفِ مِيلٍ تقْريباً . وقدْ عَرَفْتُ — منْ أُسْلوبِ بِنائِها — أَنّها سَفينَةٌ مِن سُفُنِ بِلادِنا ؛ فَأَيْقَنْتُ أنَّ خَلاصِى مِنَ الأَسْرِ قَرِيبٌ ، وَفاضَ قَلْبِى بِشْرًا وَسُرُورًا . وَلٰكِنَّنِى شَعَرْتُ — فى نَفْسِى — بِشَىْءٍ مِنَ الانْقِباضِ يُنَغِّصُ علَىَّ هٰذا الْفَرَحَ . فقَدْ تَوَجَّسْتُ[٢] شَرًّا ؛ لِأَنَّنِى لَمْ أَسْتَطِعْ أنْ أُعَلِّلَ اقْتِرابَ مِثْلِ هٰذهِ السَّفِينَةِ منْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ ، عَلَى غَيْرِ حاجَةٍ إِلَى الْمُرُورِ بِها . ورَأَيْتُ — منَ الْحَزامَةِ[٣] وَأصالَةِ الرَّأْيِ — أنْ أَتَرَيَّثَ ؛ حتَّى أَتبَيَّنَ الْحَقِيقَةَ واضِحةً ، لا لَبْسَ فِيها ولا غُمُوضَ .

٢ — شَكْوَى الرُّبَّانِ

ولَمَّا رَسا الزَّوْرَقُ عَدَدْتُ راكِبيهِ ؛ فَرأَيْتُهُمْ أَحدَ عَشَرَ مِنْ بَنِى

---

(١) صعدت . (٢) أحسست . (٣) الحكمة .

وَطَنِي ، ورَأَيْتُ — مِنْ بَيْنِهِمْ — ثلاثةً مَشْدُودِي الْوَثاقِ . ثُمَّ قَفَزَ خَمْسَةُ رِجالٍ إلى الشَّاطِئِ يَقُودُونَ أَسْراهُمْ بِالْحِبالِ ؛ فلَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا ، ولَمْ أَهْتَدِ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ الْغامِضِ .

فَقالَ لى خادِمِى « جُمْعَةُ » :

« لا شَكَّ فى أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ أَسْراهُمْ كما يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنا . »

فَأَكَّدْتُ لهُ أَنَّ هٰـذا لَنْ يكونَ ، وَلَنْ يَتَعَدَّى انْتِقامُهُمْ مِنْ أَسْراهُمْ أَنْ يَقْتُلوهُمْ ؛ أَمَّا أَنْ يَأْكُلوهُمْ فَذٰلِكَ ما لا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلَدٍ[1] .

وبَعْدَ قَليـلٍ تَرَكُوا الْأَسْرَى فى مكانِهِمْ ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ الْجَزِيرَةَ[2] مُتَنَزِّهِينَ ، حتَّى السَّاعةِ الثَّانِيَـةِ بَعْدَ الظُّهْرِ . فَوَقَفُوا يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أَشْجارِ الْغابَةِ ، بَعْدَ أَنِ اشْتَدَّتْ حَرارَةُ الْقَيْظِ ، وَجَهَدَهُمُ[3] الْحَرُّ ؛ فانْطَرَحُوا عَلَى الْأَرْضِ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلنَّوْمِ .

فَدَنَوْتُ مِنَ الْأَسْرَى ، وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقائِهِمْ ؛ فارْتَعَدَتْ فَرائِصُهُمْ[4] مِنْ رُؤْيَتِى . وَلٰـكِنَّنِى طَمْأَنْتُهُمْ حَتَّى سُرِّىَ عَنْهُمْ[5] ، ورَأَوْا أَمَلًا كَبِيرًا فِى خَلاصِهِمْ .

وَقَدْ قالَ لِى أَحدُهُمْ ، وَقَدْ شَرِقَتْ[6] عَيْناهُ بِالدُّمُوعِ :

---

(١) لا يمر بعقلهم . (٢) يجولون فيها . (٣) أتعبهم . (٤) فزعوا .
(٥) ذهب خوفهم . (٦) امتلأت .

« أنا رُبّانُ السّفِينَةِ الّتِى تُقِلُّ هٰؤلاءِ المَلّاحِينَ . وَقَدْ ثارَ عَلَيَّ رِجالِي وَتَمَرَّدُوا ، وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَتْرُكُونِى فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ الْعازِبَةِ الْمُقْفِرَةِ ، مَعَ هٰذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَبَيا[1] أَنْ يَشْرَكاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعِصْيانِهِمْ . »

٣ — النَّصْرُ

فسَأَلْتُهُ : « أَتُعاهِدُنِي عَلَى أَنْ تُقِلَّنِي وَصاحِبِي « جُمْعَةَ » فِي سَفِينَتِكَ ، إِذَا أَنقَذْتُكَ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْطَةِ[2] ؟ »

فَقال : « لَوْ تَمَّ ذٰلِكَ ، لَأَصْبَحْتُ رَهْنَ إِشارَتِكَ . »

فَرَسَمْنا خُطَّةً بارِعَةً لِلْقَبْضِ عَلَى الْعُصاةِ ، والِاسْتِيلاءِ عَلَى زَوْرَقِهِمْ . وَقَدْ فاجَأْناهُمْ وَهُمْ نائِمُونَ ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَيَّ جَيْشًا كَبِيرًا ؛ فاضْطُرَّ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْإِذْعانِ[3] ، وَعاهَدُونا عَلَى الْإِخْلاصِ .

ثُمَّ ذَهَبَ الرُّبّانُ و « جُمْعَةُ » وَرِفاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وَأَسَرُوا وَكِيلَ الرُّبّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نارَ الْفِتْنَةِ ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقاتٍ مِنْ

---

(١) امتنعا . (٢) إذا خلصتك من هذا المكان الذى يعرضك للهلاك . (٣) التسليم .

مِدْفعِ ٱلسَّفِينَةِ إِعْلانًا لِانْتِصارِهِمْ . فَلَمْ أَعُدْ أَتَمالَكُ مِنَ ٱلْفَرَحِ ، وَلَمْ أَكَدْ أُصَدِّقُ ما أَرَى ؛ فَارْتَمَيْتُ عَلى فِراشِي ، وَٱسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .



ثُمَّ جاءَ ٱلرُّبّانُ وَعانَقَنِي ، وَقالَ لِي : « إِنَّ السَّفِينَةَ وَرُبّانَها وَمَلّاحِيها لَيْسُوا إِلّا مِلْكَ يَدَيْكَ وَطَوْعَ إِشارَتِكَ . » فَأَيْقَنْتُ — حِينَئِذٍ — بِالْخَلاصِ ، وَغَلَبَنِيَ السُّرُورُ عَلى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْبِسَ(١) بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

ثُمَّ أَفَقْتُ مِنْ ذُهُولِي وَدَهْشَتِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى ٱلرُّبّانِ أُعانِقُهُ وَأَشْكُرُ لَهُ أَحْسَنَ ٱلشُّكْرِ . وَقَدْ أَحْضَرَ لِيَ ٱلرُّبّانُ هَدايا فاخِرَةً ، وَأَطْعِمَةً لَذِيذَةً ، وَثِيابًا جَمِيلَةً ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ التُّحَفِ وَالطُّرَفِ(٢) .

---

(١) أنطق .
(٢) الأشياء الغريبة الثمينة .

٤ — مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنا إِلَّا أَنْ نَتَأَهَّبَ لِلسَّفَرِ . وَقَدِ اُسْتَقَرَّ رَأْيُنا على تَرْكِ زُعَماءِ الثَّوْرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؛ حَتَّى لا يُفْسِدُوا عَلَيْنا أَمْرَنا . وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسائِلَ الْعَيْشِ وَأَساليبَ الْحَياةِ فى تِلْكَ الْبِقاعِ[1] ، وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ ، وكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصُدُونَ ، وَكَيْفَ يُجَفِّفُونَ الْعِنَبَ ، وَما إِلى ذٰلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ . ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ إِسْبانِيًّا قادِمُونَ عَلَيْهِمْ — بَعْدَ أَيَّامٍ قَليلَةٍ — وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتابًا إِلَيْهِمْ أُوصِيهِمْ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَواثيقَ والْعُهُودَ أَنْ يَعِيشُوا جَمِيعاً مُتَعاوِنِينَ مُتَحابِّينَ .

وَتَرَكْتُ لَهُمْ ما كانَ لَدَيَّ مِنْ سِلاحٍ ، وَهُوَ خَمْسَةُ مُسَدَّساتٍ ، وَثلاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ ، وَثلاثَةُ سُيُوفٍ ، كَما تَرَكْتُ لَهُمْ كُلَّ ما بَقِيَ عِنْدِي مِنَ الْبارُودِ والرَّصاصِ . وَشَرَحْتُ لَهُمْ : كَيْفَ يَتَعَهَّدُونَ الْمِعْزَى ؟ وَكَيْفَ يَحْلُبُونَ لَبَنَها ؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ وَالْجُبْنَ ؟

---

(١) الأراضى .

٥ — فِي أرضِ ٱلوَطَنِ

وَفِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي ، وَدَّعْتُ هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةَ النَّائِيَةَ ، وأَخَذْتُ مَعِي قَلَنْسُوَتِي — وهِيَ مِنْ جِلْدِ ماعِزٍ ، كما عَلِمَ القارِئُ — ومِظَلَّتِي وبَبَّغائِي. وأَخَذْتُ ما كانَ عِنْدِي مِنَ النُّقُودِ ، وقَدْ عَلاها الصَّدَأُ لِطُولِ احْتِجابِها فِي أَثْناءِ هٰذِهِ الأعْوامِ.



ثُمَّ أَقْلَعَتْ بنا السَّفِينَةُ فِي التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ « دِيسمْبِرَ » عامَ ١٦٨٦ م بَعْدَ أَنْ لَبِثْتُ فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ ثَمانِيَةً

وعِشْرِينَ عامًا وشَهْرَيْنِ وتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا . وقَدْ فَرِحَ « جُمْعَةُ » بِمُرَافَقَتِي إلَى بِلادِي ، وآثَرَ صُحْبَتِي(١) على كُلِّ شَيْءٍ .

ومِنْ عَجِيبِ الْمُصادَفاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلاصِي مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ وا يَوْمَ خَلاصِي مِنَ الْأَسْرِ فِي رِحْلَتِيَ السَّابِقَةِ ، الَّتِي عَرَفَهَا الْقارِئُ الْعَزِ

وَفِي الْيَومِ الحادِي والْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » عامَ ١٦٨٧م وَصَلْ إلَى « لَنْدَنَ » بَعْدَ أَنْ غِبْتُ عَنْها خَمْسَةً وثَلاثِينَ عامًا .

٦ — السَّفَرُ إلَى « لِشْبُونَةَ »

وَرَأَيْتُنِي غَرِيبًا فِي بِلادِي ، وَوَجَدْتُ والِدَيَّ قَدْ ماتا مُنْذُ زَمَ طَوِيلٍ ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفاقِ الْقُدَماءِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَ إلَى « لِشْبُونَةَ » ، لِأَتَعَرَّفَ وَسِيلَةً إلَى الاِسْتِفْسارِ عَمَّا آلَتْ إلَيْ دَسْكَرَتِي(٢) ، فِي « الْبَرازِيلِ » . وقَدْ عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ إلَى « لِشْبُونَةَ » — وَمَعِي « جُمْعَةُ » — فَبَلَغْناها فِي « أَبْرِيلَ » .

وعَثَرْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — على رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي أَنْقَذَنِي فِي رِحْلَتِ الْأُولَى حِينَ فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ ، وكانَ قَدْ شاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لِوَلَدِ

---

(١) اختار أن يلازمني . (٢) قريتي .

فذَكَّرْتُهُ بقِصَّتى ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ دَسْكَرَتى فِى « الْبَرَازِيلِ » : فَأَخْبَرَنى أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْها مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِى إِرْسالِ الرُّسُلِ إلَى شُرَكائِى ، حَتَّى ظَفِرَ — بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ — بِنَصيبِى مِنَ الْمالِ وَالْبَضائِعِ ؛ فَأَرْبَتْ(١) ثَرْوَتِى على خَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْجُنَيْهاتِ .

وَقدْ ضَمِنْتُ بِذٰلِكَ رَيْعًا سَنَوِيًّا — مِنْ ضَيْعَتِى بِالْبَرَازِيلِ — لا يَقِلُّ عَنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ ؛ فَأَجْزَلْتُ مُكافَأَةَ الرُّبَّانِ الْمُحْسِنِ ، اعْتِرافًا بِفَضْلِهِ عَلَيَّ ، وَصَنِيعِهِ الَّذِى أَسْلَفَهُ إِلَيَّ .

وَبَقِيتُ عِدَّةَ أَشْهُرٍ حائِرًا مُضْطَرِبًا ، لا أَدْرِى : إِلَى أَىِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ ؟ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزْمِى عَلَى السَّفَرِ إِلَى « إِنْجِلْتِرا » .

---

(١) زادت .

أَهوَالُ الـبرِّ

١ — السَّفَرُ إِلَى « مَدْرِيدَ »

وَبَقِيتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَخَيَّرُ سُلُوكَها ، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، بَعْدَ ما لَقِيتُهُ مِنَ الْأَخْطارِ وَالْمَتاعِبِ . وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفَرَ فِي الْبَرِّ آمَنُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَعَزَمْتُ على السَّفَرِ إِلَى « مَدْرِيدَ » ، بِحَيْثُ أَجْتازُ طَرِيقَ الْبَرِّ إِلى « فَرَنْسا » ، ثُمَّ لا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسافَةٌ قَصِيرَةٌ أَعْبُرُها — فِي الْبَحْرِ — بَيْنَ « كاليه » و « دُوفَرَ » .

وَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى رِفاقٍ يَصْحَبُونَنِي فى هٰذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ — وَكانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنَ السَّادَةِ ، وَخَمْسَةً مِنَ الْخَدَمِ — حَتَّى وَصَلْنا إِلَى « مَدْرِيدَ » .

٢ — الذِّئبـــانِ

وَقَدِ اُضْطُرِرْنا إِلَى مُغادَرَةِ « مَدْرِيدَ » لِقُرْبِ حُلُولِ الشِّتاء . وَعَلِمْنا أَنَّ الطَّرِيقَ — الَّتِى أَزْمَعْنا[١] اُجْتِيازَها — خَطِرَةٌ فِى هٰـذا الْفَصْلِ . وَقَدْ كانَ الشِّتاء قاسِيَ الْبُرُودَةِ ، وَرَأَيْنا الثُّلُوجَ تُغَطِّى الْجِبالَ ؛ فَنَدِمْنا عَلَى مُخاطَرَتِنا بِالسَّفَرِ فِى ذٰلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْئُومِ .

وَكانَ مَعَنا دَلِيلٌ ذَكِيٌّ شُجاعٌ . وَمازِلنا سائِرِينَ — عِدَّةَ أَيّامٍ — حَتَّى قَطَعْنا مَرْحَلَةً كَبِيرَةً فى رِحْلَتِنا الْمُضْنِيَةِ[٢] .



وَكانَ الدَّلِيلُ يَتَقَدَّمُنا أَحْياناً ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْنا لِيُرْشِدَنا إِلَى الطَّرِيقِ .

وَفِى ذاتِ مَرَّةٍ ، بَعُدَ عَنَّـا — كَعادَتِهِ — فَانْقَضَّ

(١) قررنا . (٢) المتعبة الشاقة .

عَلَيْهِ ذِئْبانِ . وَرَأَى ٱلدَّلِيلُ هَلاكَهُ مُحَقَّقًا وَشِيكًا ؛ فَصَرَخَ مِنَ الْفَزَعِ ، فَأَدْرَكَهُ « جُمْعَةُ » ، وأَطْلَقَ رَصاصَةً عَلَى أَحَدِ ٱلذِّئْبَيْنِ ، فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِسَ ٱلدَّلِيلَ . وفَرَّ الذِّئْبُ الآخَرُ هارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ .

٣ — الدُّبُّ



ثُمَّ رَأَى « جُمْعَةُ » دُبًّا هائِلَ ٱلْجِرْمِ[1] مُقْبِلًا عَلَيْهِ ؛ فاشْتَدَّ رُعْبُنا. وَلٰكِنَّ « جُمْعَةَ » سَخِرَ مِنْهُ[2] ، وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ ٱلْغِبْطَةِ[3] بِمُصارَعَةِ ٱلدُّبِّ . ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلًا: « . أَرْجُو أَلَّا

(١) الجسم . (٢) هزئ به . (٣) علامات الفرح .

تَعَكِّرُوا عَلَيَّ صَفائِي ؛ فَإِنَّنِي أُحِبُّ أَنْ أُداعِبَ هٰذا الدُّبَّ ، لِأُسَرِّيَ عَنْكُمْ قَلِيلًا . فَحَذارِ أَنْ تُطْلِقُوا عَلَيْهِ الرَّصاصَ . »

ثُمَّ قَذَفَهُ « جُمْعَةُ » بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ ، فَجَرَى الدُّبُّ مُسْرِعًا إِلَيْهِ فَصَعِدَ « جُمْعَةُ » شَجَرَةً عالِيَةً ، فَوَقَفَ الدُّبُّ تَحْتَها قَلِيلًا ، ثُمَّ تَسَلَّقَها[1] . فَأَمْسَكَ « جُمْعَةُ » بِأَحَدِ أَغْصانِ الشَّجَرَةِ ، وَظَلَّ يَهُزُّ الْغُصْنَ هَزًّا عَنِيفًا ، وَهُوَ ساخِرٌ مِنْ حَيْرَةِ الدُّبِّ ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ فِي أَثْناءِ ذٰلِكَ . ثُمَّ صَوَّبَ « جُمْعَةُ » رَصاصَةً إِلَى أُذُنِ الدُّبِّ — بَعْدَ أَنْ أَرْقَصَهُ طَوِيلًا — فَقَتَلَهُ . وَقَدْ أَضْحَكَنا كَثِيرًا .

٤ — لَيْلَةٌ هائِلَةٌ

وَرَأَيْنا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ ، والنَّهارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَضِيَ . فَضاعَفْنا السَّيْرَ مُسْرِعِينَ ؛ لِنَجْتازَ الْمَسافَةَ الْقَلِيلَةَ الْباقِيَةَ عَلَيْنا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ الْمُفَزِّعَةِ . وَما غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى مَرَّتْ بِنا خَمْسَةُ ذِئابٍ ؛ فَلَمْ نَأْبَهْ لَها[2] . وَكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ[3] — فِي كُلِّ لَحْظَةٍ — لِمُدافَعَةِ الذِّئابِ

(١) صعدها .   (٢) لم نهتم بها .   (٣) مستعدين .

الْكَثِيرَةِ ، الَّتِي سَتَعْتَرِضُنَا فِي الطَّرِيقِ ، كَمَا أَخْبَرَنَا الدَّلِيلُ .

وَما تَقَدَّمْنا نِصْفَ فَرْسَخٍ[١] بَعْدَ ذٰلِكَ ، حَتَّى رَأَيْنا ذِئابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ لَحْمَ جَوادٍ مَيِّتٍ ، وَقَدْ مَزَّقَتْهُ تَمْزِيقًا .

* * *



وَلَمْ نَجْتَزْ مَرْحَلَةً قَصِيرَةً أُخْرَى ، حَتَّى مَلَأَتِ الذِّئابُ الْجَوَّ بِعُوائِها . وَرَأَيْنا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ ذِئْبٍ تَكْتَنِفُنا[٢] ، مُتَحَفِّزَةً لِلْوُثُوبِ عَلَيْنا ، والْفَتْكِ بِنا . فَأَطْلَقْنا عَلَيْها الرَّصاصَ ، وَصَرَخْنا صَرَخاتٍ عالِيَةً لِنُخِيفَها .

فَوَلَّتِ الذِّئابُ هارِبَةً .

* * *

وَلَمَّا قَطَعْنا مَرْحَلَةً أُخْرَى ، أَحاطَتْ بِنا قُطْعانٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَمِعْنا

---

(١) نحو أربعة من الكيلومترات .

(٢) تحيط بنا

صَوْتَ رَصاصَةٍ بِالْقُرْبِ مِنّا ، وَرَأَيْنا جَوادًا يُسابِقُ الرِّيحَ ، وَتَعْدُو فِي إِثْرِهِ جَمْهَرَةٌ مِنَ الذِّئابِ ؛ فَعَلِمْنا أَنَّ مآلَهُ[1] الْمَوْتُ الْوَشِيكُ .

وَما سِرْنا خُطُواتٍ قَلِيلَةً ، حَتَّى رَأَيْنا جُثَّةَ جَوادٍ آخَرَ قَطَّعَتْها الذِّئابُ



إِرْبًا إِرْبًا[2] ، وإلى جانِبِها جُثَّتَيْ فارِسَيْنِ ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُما الذِّئابُ إِلَّا الْعِظامَ . فَعَلِمْنا أَنَّ أَحَدَهُما هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ الرَّصاصَةَ الَّتِي سَمِعْنا دَوِيَّها مُنْذُ حِينٍ .

وإِنَّا لَحائِرُونَ مَذْعُورُونَ مِنْ هٰذا الْمَنْظَرِ الْمُفْزِعِ الْهائِلِ ، إِذْ أَقْبَلَ

(١) مصيره . (٢) قطعة قطعة .

عَلَيْنا — مِنْ أَسْرابِ الذئابِ — ما لا قِبَلَ لَنا بِمُقاوَمَتِه . فقَدِ اكْتَنَفَنا نَحْوُ ثَلاثِمائَةِ ذِئْبٍ : فاعْتَصَمْنا[1] بِأَشْجارٍ قَرِيبَةٍ .

وبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنا ، ظَلِلْنا نُطْلِقُ عليْها الرَّصاصَ ؛ فَتَراجَعَتْ ، ثُمَّ كَرَّتْ علَيْنا كَرَّةً أُخْرَى . وما زِلْنا نُحارِبُها مُسْتَبْسِلِينَ ، حتَّى قَتَلْنا مِنْها نَحْوَ سِتِّينَ ذِئْباً ، وكَسَبْنا الْمَعْرَكَةَ — بَعْدَ جِهادٍ عنيفٍ — وانْتَصَرْنا عَلَى الذِّئابِ ، بِأُعْجُوبَةٍ لا مَثِيلَ لها فى الْأَعاجيبِ .

٥ — خاتِمَةُ الرِّحْلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنا الْمَرْحَلَةَ الْباقِيَةَ مُسْرِعِينَ ، حتَّى وصَلْنا إلى الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ أتْمَمْنا رِحْلَتَنا — بعْدَ ذٰلِكَ — آمِنِينَ .

وما أَنْسَ لا أَنْسَ — ما حَيِيتُ — هٰذِهِ الرِّحْلَةَ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ الَّتِى أَنْسَتْنِي أَهْوالُها أَهْوالَ الْبَحْرِ .

وقَدْ آلَيْتُ[2] عَلَى نَفْسِى أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْباقِيَةَ مِنْ عُمْرِى فى دَعَةٍ[3] واطْمِئْنانٍ ، وأَمْنٍ وسَلامٍ

القصة التالية : « جلفر فى بلاد الأقزام »

(١) لجأنا . (٢) حلفت . (٣) راحة .

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٨٥٩٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3838 – 4	ISBN

١ / ٩٢ / ١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الأطفال

بقلم
كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة .
٣ « فى الجزيرة الطيارة .
٤ « فى جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عرب

١ حى بن يقظان . ٢ ابن

قصص تمث

١ الملك النجار .

دار المعارف

٥٫٥٠